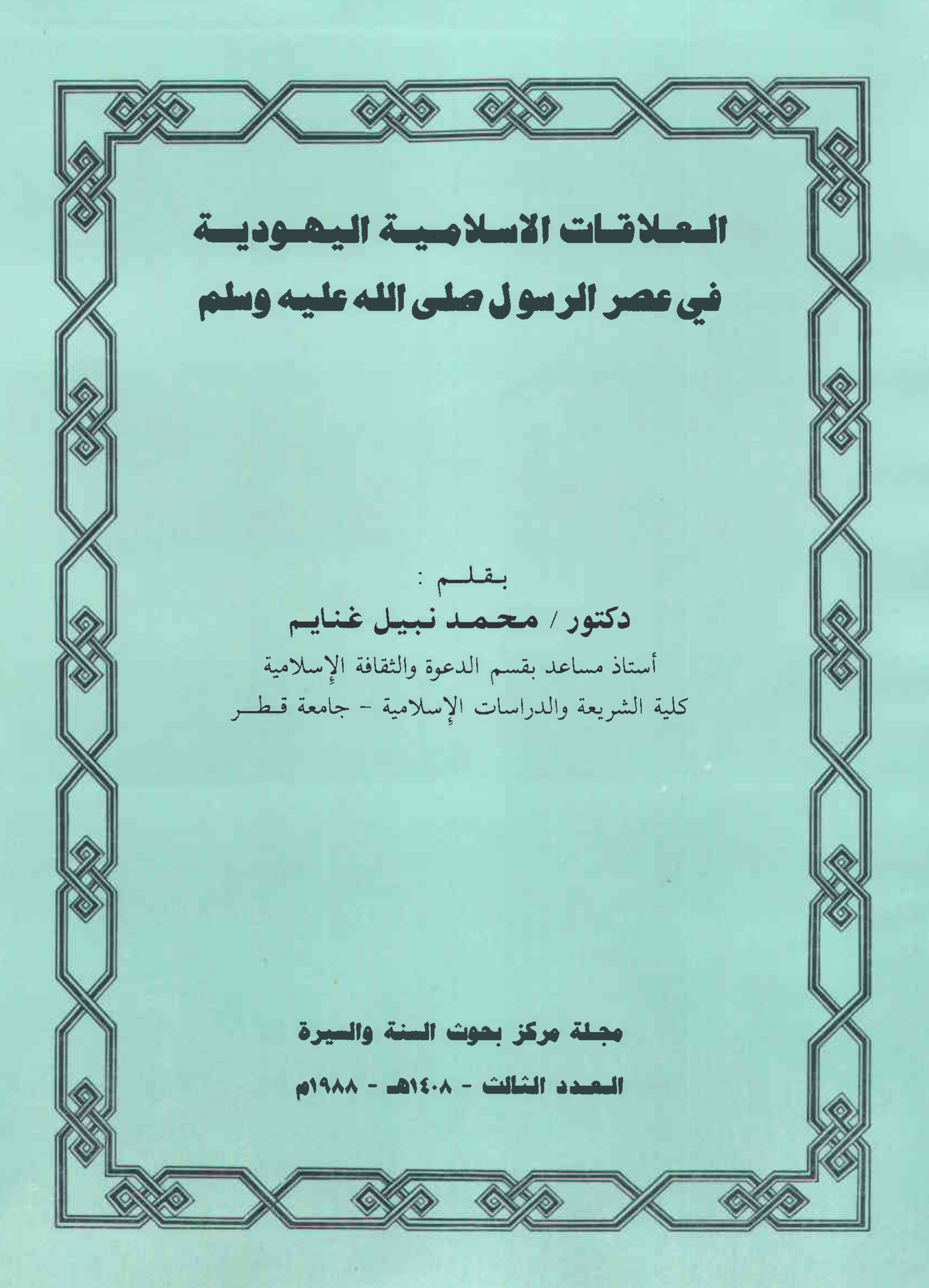


العلاقات الاسلامية اليهودية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

بقلم :

دكتور / محمد نبيل غنايم

أستاذ مساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة قطر

مجلة مركز بحوث السنة والسيرة

العدد الثالث - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وصلى الله علي سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

وبعد

فيسعدني أن أشارك علماء المسلمين في دراساتهم حول السنة والسيرة النبوية بهذا البحث المتواضع عن : « العلاقات الإسلامية اليهودية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم » .

وقد تناولت فيه بإيجاز بداية انتقال اليهود إلى الجزيرة العربية بعامة وتوطنهم في يثرب بخاصة وعرفت بأحوالهم بعد انتقالهم إلى يثرب سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ودينيا .

ثم انتقلت في إيجاز للكلام عن العلاقات ، فبينت أولا مباديء الإسلام وأسسه في تكوين العلاقات بين المسلمين وغيرهم لتكون ضوءا لنا يحكم مسيرتنا فيما يتلو ذلك من فصول .

ثم تناولت العلاقات الإسلامية اليهودية في مبحثين بينت في المبحث الأول منهما العلاقات السلمية أو بعبارة أخرى العلاقات التي لم تتطور إلى حرب بين الفريقين ومن خلالها تظهر سماحة الإسلام وتسامح المسلمين وحرصهم على الأمن والسلام والوفاء في حين كان غيرهم يحيك المؤامرات

ويدبر المكائد للنيل من الرسول والرسالة في هدوء .

وفي البحث الثاني تناولت العلاقات حين تأزمت الأمور بين الطرفين حتى تطورت إلى حروب كان لها أسبابها التي بيناها ونتائجها التي ألمحنا إليها على كلا الـطرفين ومنها يتبين لنا مدى عدل الإسلام وأهله في معاملة اليهود قبل الحرب وفي أثنائها وبعد الإنتهاء منها .

وختمت البحث بأبرز النقاط في مسيرة هذه العلاقات وتطورها منذ ولادة النبي صلى الله عليه وسلم إلى وفاته .

أسـأل المـولى سبحـانـه وتعـالى أن يوفقنا جميعا لما فيه خير الإسلام والمسلمين وأن يجعل سنة نبيه صلى الله عليه وسلم وسيرته نبراسا في حياتنا وعلاقاتنا وأن يتقبل عملنا هذا ويوفق المسئولين إلى كل خير .

وهو حسبنا ونعم الوكيل . . . .

تمهيد :

اليهود في المدينة :

قبل الحديث عن العلاقات الإسلامية اليهودية ، نلقي ضوءا على قدوم اليهود إلى الجزيرة العربية بعامة ويثرب بخاصة ، ونبين جانبا من نشاطهم ؛ وأحوالهم قبل الإسلام .

قدم اليهود جزيرة العرب ، وحلوا بيثرب قبل الهجرة النبوية بمئات السنين وذلك - كما يقول ولفنسون(١) بعد الحرب التي وقعت بينهم وبين الرومان سنة ٧٠ م وانتهت بهزيمتهم وتفرقهم بين الأمصار وتشتتهم في بلاد العالم فحل فريق منهم في جزيرة العرب واستوطنوا « يثرب » وتجمع هؤلاء اليهود في « يثرب » فى ثلاث قبائل كبرى هي : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وتفرع من هذه القبائل فروع كثيرة ، فمن فروع بني قريظة مثلا : بني هدل ، وبني زنباع ، ومنهم يهود بني عوف ، ويهود بني النجار ، ويهود بني ساعدة ، ويهود بني ثعلبة ، وبني جفنة ، وبني الحارث ، وغيرها ، وقد تفرقت القبائل وفروعها في وسط يثرب ونواحيها فمنهم من أقام بالعالية بوادي بطحان وهم بنو النضير ، ومنهم من أقام في منطقة مهزور بجنوب المدينة وهو بنو قريظة ، أما بنو قينقاع فكانوا يقيمون في محلة خاصة بهم وسط يثرب .

وكانت أماكنهم وقراهم محصنة ، يعيشون فيها متكتلين كما أشار القرآن الكريم « وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله »(٢) . « لا يقاتلونكم جميعا

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب -د/إسرائيل ولفنسون ص ٩ وأنظر وفاء الوفا في أخبار دار المصطفى ص ١١٦ .

(٢) الحشر ٢ .

إلا في قرى محصنــة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعـا وقلوبهم شتى » (١) .

وحول هذا المعنى نوجز ما قاله الشيخ محمد أبو زهرة : « كانت أرض العرب مأوى لأصحاب الديانات الذين فروا من الإضطهاد - كاليهود الذي فروا من التتار والرومان من بعدهم إلى بلاد العرب حيث وجدوا الملاذ ابتداء في أرض اليمن . . وقد اعتنق اليهودية بعض اليمنيين ، وقد عاشر اليهود الأوس والخزرج في موطنهم الأصلى باليمن ، ولما هاجر أولئك الوثنيون إلى يثرب هاجـر اليهود أيضا إلى ما حول يثرب ، فهاجر بنو النضير وبنو قريظة ، وبنو قينقاع وخيبر ، ولم يندمجوا في الشعب العربي بل اتخذوا حصونا تحتويهم حيث أقـامـوا وأنتجعـوا الخصيب من الأرض فكـان لهم النخيل والتمـر في يثرب . . وكانوا كشأنهم أثرين يحبون أنفسهم ولا يتعاملون مع العرب ، وإن تعاملوا معهم يبخسونهم ، وخانوهم عهودهم كما قال تعالى « ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعملون »(٢) فالعرب الذين آووهم وأنـزلـوهم أرضهم أبوا هم عليهم المعاملة الطيبة ، ونظروا إليهم على أنهم دونهم وأنهم أميون ، والأمي يُؤكل حقه في زعمهم الباطل ومنطقهم الأثيم ، وجانبوهم وتحيزوا في حيز دونهم وعاشوا بجوارهم يأخذون ولا يعطون . . »(٣) .

وبهذا استقرت أوضاع اليهود في يثرب ، وكونوا مع زعماء العرب علاقات ومحالفات ، وكان بعض زعماء العرب يشكل فرقا منهم لحراسته مقابل إتاوات

---

(١) الحشر ١٤ . (٢) آل عمران ٧٥ .

(٣) خاتم النبيين ص٥٦ ، ٥٧ وانظر أيضاً صفحات ٣٤٦ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ .

يأخـذهـا اليهـود منهم كل عام ، كمـا كانت لهم أماكنهم الخاصة بعبادتهم وتعليمهم تسمى « المدارس » يتدارسون فيها أمور دينهم وأحكام شريعتهم كما كانت لهم أعيادهم الخاصة بهم وتشريعاتهم التي تنظم أمور دينهم ودنياهم .

أمـا عن أحـوالهم الإقتصـادية ، فقـد كان اليهـود أكثر غنى وأموالا من العرب ، وكانوا يتحكمون في كثير من الجوانب الإقتصادية ، فقد كانت معظم الصناعات في أيديهم ، وكان عامة بني قينقاع « صاغة »[1] وكانوا أكثر طوائف اليهود مالا ، ولهذا الإنتعاش الإقتصادي كانوا يقرضون أهل يثرب الأموال بالربا والـرهن ، وكـانوا حريصين على استمرار سيطرتهم الإقتصادية بأي شكل ، ولهذا كانت المادة تتحكم في جميع علاقاتهم ، فإن كان في العلاقة كسب مادي ومنفعة شخصية حرصوا عليها ، وإن تعرضت المصلحة المادية لأي خطر أقاموا الحرب وأشعلوها بين القبائل العربية ليضعفوا فتبقى لهم السيادة والسيطرة الإقتصادية .

وقد تهود عدد من العرب بتأثير اليهود وعلاقاتهم الإقتصادية والإجتماعية ، حتى إن بعض من كان لا يعيش له ولد من العرب كان ينذر إذا ولد له ولد وعاش أن يهوده ، فكان في المدينة أيضا عدد من يهود العرب الذين دخلوا اليهودية عن هذه الطريقة أو غيرها .

وكان بعضهم يشتغل بالتجارة والزراعة حتى نستطيع القول بأنهم سيطروا على جميع المناشط الاجتماعية والاقتصادية علاوة على التأثيرات الدينية .

يقـول الأستاذ عزة دروزه : « عرف العرب الحجازيون أهل الكتاب من

---

(١) يصوغون الذهب ويتاجرون فيه .

يهود ونصارى في بلاد الحجاز والشام ، واحتكوا بهم وأخذوا عنهم كثيرا من الأفكـار والمعـارف ، ومنهم من دان باليهـودية والنصـرانية وتضلع باللغـة العبرانية ، واطلع على ما عند اليهود والنصارى من كتب ، وقد عرفوا كذلك ما كان عليه أهل الكتاب من خلاف وشقاق في الأمور الدينية والمذهبية ، وكان لكـل ذلـك صدى وأثر في نفوسهم وأذهانهم(١) . ثم يقول : وكان العرب يعتمـدون على علمـائهم ويثقون بهم ولذا احتج الله تعالى على المشركين بمعرفة علماء بني إسرائيل بصدق القرآن الكريم كقوله تعالى « أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل »(٢) وقوله « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم »(٣) ثم يقول : « ومن الطبيعي أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد وقف منذ البدء موقف المسالم المتحبب من الكتابيين في مكة . . ونعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ألهم هذا الموقف قبل نبوته أيضا ، إذ كان بينه وبين بعض الكتابيين صلة ود ومبادلة عطف وتصديق »(٤) ، ومن هنـا وقف اليهود والنصارى من الدعوة المحمدية منذ البدء موقفا طيبا بل إن بعضهم قد آمن واتبع كما في قوله تعالى « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون »(٥) .

---

(١) سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم/ محمد عزه دروزة حـ١ ص ٣٢٧ .

(٢) الشعراء ١٩٧ .

(٣) الأنعام ٢٠ .

(٤) السابق ص ٣٣٦ .

(٥) الأعراف ١٥٧ .

تلك صورة سريعة عن صلة اليهود بالجزيرة العربية وأحوالهم فيها قبل الإسلام [1] .

مباديء الاسلام في العلاقات :

قبل الخوض في أطوار العلاقات الإسلامية اليهودية نبين في أيجاز أبرز مباديء الإسلام في إنشاء العلاقات بين المسلمين وغيرهم لنرى بعد ذلك إلى أي مدى كان الإسلام وأهله متسامحين وإلى أي حد كان غيرهم متعسفين .

ومن المعلوم أن الإسلام دين الله تعالى ورسالته إلى خلقه أجمعين بعث به محمدا صلى الله عليه وسلم فكانت بعثته اللبنة الأخيرة في زوايا هذا القصر الشامخ ، لذلك جاءت شاملة وعامة وصالحة لكل زمان ومكان ، يتضح ذلك من مبادئها التي وضعتها للعلاقة بين الناس وفي مقدمة ذلك :

١ ـ أن الناس جميعا عباد الله هو خالقهم ورازقهم ومدبر أمورهم ومصرف أحوالهم ، بيده مقاليد الأمور وهو على كل شيء قدير ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، هو المعز وهو المذل ، وهو المعطي والمانع وهو المعبود الواحد الأحد ، إليه نركع ونسجد ، وإليه نصوم ونتعبد ، ونؤدي زكاتنا وننفق أموالنا ابتغاء وجهه ومرضاته ، ونحج بيته تلبية لندائه ، ورغبة في رحمته وغفرانه ، ونجاهد لإعلاء كلمته وتبليغ دعوته وهداية خلقه . ومن هنا فلا سلطان لأحد على أحد ، ولا فضل لأحد على أحد إلا كما قال الله عز وجل « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[2] والله سبحانه رب العالمين لا رب بني إسرائيل فحسب كما يزعم اليهود ، ولا أباهم ولا أبا

---

(١) انظر : السيرة النبوية لأبي الحسن الندوى ص ١٣٢/١٣٨ وهامش ص ١٣٣ .

(٢) الحجرات /١٣ .

غيرهم . كما يدعي اليهود والنصارى « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه »(١) .

٢ ـ والناس جميعا أخوة لأن أباهم واحد هو آدم وأمهم واحدة هي حواء « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء »(٢) . لذلك يتعارفون ولا يتناكرون ، ويتعاونون ويتحابون ، لا يتخاصمون ولا يتدابرون « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا(٣) » .

وكما أعلن ذلك القرآن الكريم كتاب الله الخالد أعلنه رسوله الخاتم صلى الله عليه وسلم في أكبر تجمع إسلامي في حجة الوداع في عرفات « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى ، ألا هل بلّغت ، اللهم اشهد(٤) » .

فالمسلم أخو المسلم وكل إنسان يهوديا كان أو نصرانيا أو غير ذلك ، وتلك حقيقة تميز بها الإنسان المسلم عن كل ما سواه من أولئك الذين زعموا أنهم من جنس خاص ولهم دماء خاصة ، فمنهم من نسب نفسه إلى الشمس والقمر ، ومنهم من ادعى أنه ابن الله ، ومنهم من ادعى الألوهية تعالى الله عن الشريك والإبن والصاحب علوا كبيرا .

٣ ـ وانطلاقا من هذا فإن للإنسان - أيا كان - في الإسلام كرامته وسموه وعلو قدره ، وقد أعلن القرآن الكريم ذلك على إطلاقه في أكثر من آية فمن

---

(١) المائدة / ١٨ .
(٢) النساء / ١ .
(٣) الحجرات / ١٣ .
(٤) القول المبين في سيرة سيد المرسلين د/الطيب النجار ص ٣٣٩ .

ذلك قوله تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »(١) وقوله تعالى : « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا(٢) » وقوله عز وجل : « وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه »(٣) كما أعلن ذلك الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في أكثر من حديث فمن ذلك ما روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : مر بنا جنازة فقام لها النبي صلى الله عليه وسلم وقمنا فقلنا : يا رسول الله إنها جنازة يهودي ، قال صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم الجنازة فقوموا إن الموت فزع(٤) » فالإنسان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مكرم حيا وميتا ، مسلما أو غير مسلم ، وقوله « من لا يرحم لا يُرحم ، أرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »(٥) .

فأين هذا ممن داسوا كرامة الإنسان وسفكوا دماءه وانتهكوا عرضه وأكلوا ماله بالباطل في الشرق والغرب على حد سواء ؟

٤ ـ عني الإسلام بالأخلاق والتربية الخلقية حتى تكون أساسا في التعامل بين الناس ، وأولى القرآن الكريم والسنة النبوية ذلك الجانب عناية فائقة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون »(٦) ويكاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحصر بعثته وأهداف رسالته في مكارم الأخلاق « إنما بعثت لأتمم

---

(١) الإسراء / ٧٠ .
(٢) البقرة / ٢٩ .
(٣) الجاثية / ١٣ .
(٤) عون الباري شرح صحيح البخاري حـ٢ ص ٦١٢ .
(٥) عون الباري حـ٦ ص ١٣٩ .
(٦) النحل / ٩٠ .

مكارم الأخلاق »[1] فالصدق والأمانة والعدل والوفاء والإحسان والبر والعفو والتسامح والكرم والعفة والشجاعة إلى غير ذلك كلها أخلاق إسلامية ربى الإسلام عليها أبناءه والتزمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانطلقوا بها إلى مشارق الأرض ومغاربها يعاملون الناس في ضوئها ويقيمون علاقاتهم مع الناس على أسس منها .

٥ ـ والإسلام دين السلام يرسي قواعده بين الناس ، ويقيم علاقاته معهم على أساسه ، ولذلك لا يلجأ الإسلام في حل المشاكل إلى الحرب إلا حين تعجز الوسائل السلمية الأخرى وتصبح الحرب ضرورة لا بد منها ومع هذا فإذا قامت الحرب في ضرورة فإن باب السلم مفتوح يدعونا الله عز وجل إليه ويأمرنا به إذا طلب المحاربون ذلك قال تعالى « وإن جنحو للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين »[2] . وقال تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون »[3] .

وحول هذه المبادىء يقول الدكتور يوسف القرضاوي مستشهدا بما قاله « غوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » الحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم » ثم يقول : لقد احترمت الشريعة عقائد الآخرين ورفضت الإكراه في الدين رفضا باتا ، وأعلن القرآن

(١) رواه مالك في الموطأ .
(٢) الأنفال / ٦١ ٦٢ .
(٣) الحشر / ٨ ، ٩ .

هذه الحقيقة « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي »[1] وخاطب الله رسوله بقوله « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »[2] ولهذا قرر المؤرخون بكل يقين أن المسلمين لم يجبروا شعبا ولا فئة من الناس على اعتناق الإسلام بحال ، وقد كانوا قرونا عديدة يملكون من القوة والنفوذ ما يغريهم بذلك لولا سلطان الشريعة فوق رؤوسهم ووازع الإيمان في صدورهم .

ثم يستشهد أيضا بما قاله « روبرتسون » : « إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو اتباع الأديان الأخرى وأنهم مع امتشاقهم الحسام نشرا لدينهم تركوا من لم يرغبوا فيه أحرارا في التمسك بتعاليمهم الدينية »[3] ، كما أشار إلى المباديء الأخرى في وضوح[4] ، وقد تناول فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة هذه المباديء بالتفصيل في كتابه القيم « خاتم النبيين »[5] .

تلك صورة عن مباديء الإسلام وأسسه في إنشاء العلاقات وإقامتها بين المسلمين مع بعضهم البعض ، ومع غيرهم ، يتجلى من خلالها عظمة لإسلام وسمو مبادئه حتى لنجد أرقى ما وصلت إليه الإنسانية في العلاقات وحقوق الإنسان أقل مما دعا إليه الإسلام وأرسى مبادئه وطبقها بين الناس ، وكيف يتساويان وهذا شرع الله وذلك شرع الآدميين ؟

---

(١) البقرة ٢٥٦ .
(٢) يونس ٩٩ .
(٣) شريعة الإسلام ـ د/يوسف القرضاوي ص ٥٢ .
(٤) أنظر المرجع السابق ص ٥٤، ٦١ .
(٥) أنظر خاتم النبيين ص ٦٥١-٦٧٢ .

العلاقات الاسلامية اليهودية :

في ضوء تلك المباديء الإسلامية العامة ، وفي ظل هدي الرسول صلى الله عليه وسلم نتحدث في السطور التالية عن العلاقات الإسلامية اليهودية في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والمتتبع لأطوار هذه العلاقات يستطيع تقسيمها إلى قسمين :

(أ) في السـلـم (ب) في الحــرب .

وسنجد كل قسم من هذين القسمين يمر ببعض الوقائع التي كانت لها خصائصها ومميزاتها ، وهذا بيان ذلك .

(أ) في السـلـم :

١ ـ ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم ، فمن أخفر مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لايقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا . وقال : « المسلمون تتكافأ دماؤهم وهو يد على من سواهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده من أحدث حدثا فعلى نفسه ، ومن أحدث حدثا أو آوي محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »

وثبت عنه أنه قال : « من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء » وقال : « من أمن رجلا على نفسه فقتله فأنا بريء من القاتل » وفي لفظ « أعطى لواء غدر » وقال : « لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به بقدر غدرته » يقال : هذه غدرة فلان بن فلان ، ويذكر أنه قال : « ما نقض قوم العهد إلا أديل عليهم العدو »[1] .

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد / ابن القيم / جـ٢ ص ٧٠ .

من هنا وفي ضوء هذه المباديء والأسس التي أرساها رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن الإسلام في وضوح احترام المسلم لأهل الذمة وحمايته لهم وحفاظه عليهم وعلى أرواحهم ومعاهداتهم وأمره بالوفاء لهم بماعوهدوا عليه ، وتحذيره من مغبة خيانتهم والغدر بهم ووعيده الشديد لمن يقع في شيء من الخيانة والغدر بما عاهدهم عليه ، في ضوء هذا كله نجد التطبيق العملي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في معاملة اليهود إبان الهجرة إلى المدينة ، فقد صالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ووادعهم على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه ولا يوالوا عليه عدوه ، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم ، كان ذلك في السنة الأولى من الهجرة ، وقد كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم كتابا بذلك عاهدهم فيه وأقرهم على دينهم وشرط لهم واشترط [١] عليهم فكان مما جاء فيه « وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين لا متناصر عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضهم بعضا . . . وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم واثم فإنه لا يوتغ [٢] إلا نفسه وأهل بيته ، وإن ليهود بني النجار وبني الحارث وبني ساعدة وبني جشم وبني الأوس وبني ثعلبة وجفنة وبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وإن البر دون الإثم ، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم ، وإن بطانة يهود كأنفسهم ، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد .

---

(١) مختصر سيرة الرسول (ص) ابن عبد الوهاب ص ١٣٩ .

(٢) يوتغ : يهلك .

ولا ينحجز على ثأر جرح(١) ، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم وإن الله على أبر هذا ، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وان يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وأنه لا تجار حرمة إلا باذن أهلها ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ، وأن الله على أنقى ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وان بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ، وإنه لا يحول هذا الكتاب دونه ظالم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى »(٢) .

هكذا كان عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع يهود المدينة ، هم على دينهم آمنون على أنفسهم وأموالهم ، مطمئنون لجيرانهم ، متحدون معا على أعدائهم ، يد واحدة على من أراد بالمدينة شرا ، ثم يتعاون أهل كل فريق أو حي في نفقاتهم وفي دياتهم ، ومن أراد شرا فعلى نفسه وأهله ، والله سبحانه مع المتقين من هؤلاء وأولئك ، أما الظالمون من هؤلاء وأولئك فعليهم غضب الله ولعنته ، والحكم والرد في كل قضية إلى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وتدل هذه الوثيقة على مدى العدالة التي اتسمت بها معاملة النبي صلى

---

(١) كذا في ابن هشام ، وفي النهاية لما تحجر جرحه للبرء انفجر .

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٣٧ والبداية والنهاية لابن كثير جـ٣ ص ٢٤٦ .

الله عليه وسلم لليهود ، وعلى أن أساس الدولة قائم على العدالة الإجتماعية وأن أساس العلائق بين المسلمين وغيرهم هو السلم ما سالموا وأن مبدأ الحق والعدل والتعاون على البر والتقوى والعمل لخير الناس ودفع أذى الأشرار عن المجتمع هو أبرز الشعارات التي تنادي بها دولة الإسلام[1] .

ولفضيلة الشيخ محمد أبو زهرة نظرة في هذه الوثيقة وتعليق عليها نوجزه فيما يلي : يقول الشيخ : هذه وثيقة النبي صلى الله عليه وسلم التي نظم بها المجتمع الجديد لسكان المدينة ، لا فرق بين مهاجرين وأنصار ولا فرق بين مؤمنين ويهود ، ويلاحظ فيها :

(أ) أن النبي صلى الله عليه وسلم بحكم النظام الجديد الذي أنشأه في المدينة صار هو الرئيس الأول لتنفيذ ما اشتملت عليه الوثيقة ولذلك لم يبح لطائفة من اليهود أن تخرج في حرب إلا بإذنه حتى لا تتورط في أمر يضطرب به أمر هذا المجتمع . .

(ب) أنه بمقتضى هذه الوثيقة يصير اليهود الذين يقيمون بيثرب رعية واحدة فلا تكون لهم أحكام خاصة بهم لا تسرى على غيرهم ولا يختصون بنظم لا تنطبق على غيرهم ، وذلك مع الإحتفاظ بدينهم ، تراعى فيه حرمة العقيدة وألا يكون لأحد سبيل عليهم فيها . .

(جـ) إن العهد كان أساسه التعاون بين العشائر . .

(د) أنه مع التعاون بين العشيرة ، هناك تعاون عام بحيث يتضافر المؤمنون جميعا . . وأن الحلف يوجب أن يكون عدو النبي صلى الله عليه وسلم عدواً لليهود فلا يجار قرشي ولا من يناصر قريشا ، فعلى اليهود ألا يوالوا

---

(١) السيرة النبوية د/مصطفى السباعي ص ٨٠ .

المشركين لأنهم أعداء الله تعالى وأعداؤهم ، وذلك لأن الميثاق يجعل أهل المدينة مسلمين ويهودا أهل ولاء واحد ، عدوهم واحد ومناصرتهم واحدة وذلك ليكون أمن الجميع واحداً . . . . ثم يقول :

فهل وفى به اليهود ! ! !

إن الأمور التي تجري كفيلة بالجواب مع ملاحظة أن الأمر يوجب الوفاء من الجانبين ، وإن أخل أحدهما ذهبت الحقوق التي تضمنتها الوثيقة له ، وإذا كان الإحلال فيما يتعلق بالأمور الخارجية وهي موالاة اليهود للمشركين على المؤمنين ، فإنه في هذه الحالة تزول صفة الجوار ، ويكون من الواجب على من ينكث أن يترك الجوار ويتخلى عن الإقامة في المدينة ، وحل للطرف الآخر أن يخرجه طوعا أو كرها(١) .

وقد أدرك المسلمون في ظل هذه المباديء والأسس أن الإسلام بكتابه العظيم ورسوله الكريم يربيهم على التسامح وسعة المخالفين والإحسان إليهم والبر بهم ، وينهاهم عن أن يحملوا لهم أي كراهية أو حقد أو أن ينالوهم بأي إساءة ، كما أمرهم بالوفاء بالعهود والمواثيق وحذرهم من نقض عهدهم بأي صورة من الصور(٢) .

قال تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون »(٣) .

وجعل القرآن الكريم الخروج عن فضيلة الوفاء كالخروج من فضيلة الإنسانية كلها حيث قال جل شأنه « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم

---

(١) أنظر : خاتم النبيين ص٦٧٤-٦٧٦ .
(٢) لمحات في الثقافة الإسلامية / عمر عودة الخطيب ص ٢٧٩ .
(٣) النحل / ٩١ .

لا يؤمنـون ، الـذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم وفي كل مرة وهم لا يتقـون . فاما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائبين(١) .

وكان المسلمون أول من وضع قاعدة الوفاء بالعهود والمواثيق ثقة منهم بأن الوفاء بالعهد في ذاته قوة فوق أنه عدالة وفضيلة ، وهو دعامة أساسية من دعائم السـلام ، ان العهـد في ذاتـه قوة والتـزامه قوة لأنه يؤمن فيه جانب الأعداء والاعتداء ، وأمن الاعتداء يثبت دعائم السلام . والسلام تطمئن فيه الشعوب وتستقر(٢) .

هذا ما كان من الإسلام في أول عهده نحو اليهود وغيرهم في المدينة فماذا كان من اليهود نحو الإسلام ورسوله ؟

١ - **التبشير** - جاء في التوراة وغيرها من كتب اليهود ما يبشر بمجيء النبي صلى الله عليه وسلم ويعرف به وبصفاته من مثل ما روي عن زيد بن أسلم قال : بلغنا أن عبد الله بن سلام يقول : « أن صفة رسول الله في التوراة ، يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين أنت عبدي ورسولي سميتـك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخب بالأسواق ولا يجزي السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ولن أقبضه حتى أقيم به الملة المتعوجة بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح به أعينا عمياء وآذانا صما وقلوباً غلفا ، فبلغ ذلك كعب الأحبار فقال : صدق عبد الله بن سلام(٣) من أجل ذلك راح اليهود يعلنون بين حين وآخر عن قرب ظهور النبي الأخير ويتباهون بذلك ويهددون بالانتماء إليه ، وكانوا يطلبون من الله عز وجل النصر على أعدائهم بالنبي المنعوت في

---

(١) الأنفال / ٥٥-٥٨ .
(٢) لمحات في الثقافة الإسلامية / عمر عودة الخطيب ص ٢٨٤ .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ١ ص ٨٧ .

آخر الزمان الذي يجدون صفته عندهم في التوراة . وأخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم والبيهقي كلاهما من الدلائل من طريق عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري قال : حدثني أشياخ منا قالوا لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم منا لأن معنا يهود وكانوا أهل كتاب وكنا أصحاب وثن ، وكانوا إذا بلغهم منا ما يكرهون قالوا أن نبيا ليبعث الآن قد أطل زمانه نتبعه فنقاتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم اتبعناه وكفروا به ففينا والله وفيهم أنزل الله « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به »(١) .

كان اليهود يبغون من وراء ذلك التبشير بالرسول الجديد والتهديد به مزيدا من السيطرة على العرب واحتكار المقدرات المالية والمعنوية وكانوا يظنون أنه سيكون منهم ومن سلالتهم ، ولم يكن الكثير من أحبار اليهود يتوقعون أن النبي الجديد سيجيء هذه المرة من سلالة أخرى غير السلالة اليهودية وأنه بانتمائه العربي سيشكل خطرا على وجودهم المستقل ، وبدعوته العالمية المفتوحة سيكتسح تجمعاتهم القومية المغلقة ، وبمبادئه العادلة الواضحة سيفضح طقوسهم وأسرارهم التي يرتزقون منها ويضمنون بقاءهم في المراكز العليا لبني قومهم .

٢ - **الكيد** - وما أن جاء الموعد وحل الأجل المضروب في التوراة والإنجيل ، ولم يظهر في اليهود النبي الذي ظنوه منهم ، وولد محمد صلى الله عليه وسلم يحمل علامات نبوته المادية والمعنوية حتى بدأ اليهود يتخوفون من أن تخطيء ظنونهم وأن لا تكون النبوة فيهم فيصابون بخسارتين ، وأصبح الطفل الذي سيبعث إلى العالم في خطر دائم من مكر اليهود وعرقيتهم التي

---

(١) فتح القدير/ الشوكاني جـ١ ص ١١٢/١١٣ تفسير الآية ٨٩ من سورة البقرة وانظر خاتم النبيين ص ٣٤٧ .

تتيح لهم اتخاذ أي أسلوب مهما كان دنيئا لوقف كل ما يهدد مصالحهم ووجودهم حتى لو كان هذا الأسلوب القتل والغيلة ، وهذا يفسر لنا تحذير (بحيرا الراهب[1]) لأبي طالب :

« إرجع بابن أخيك إلى بلدك واحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا ، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم »[2] .

ويرجح بعض الدارسين أن اليهود بعد أن تيقنوا من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم أخذوا يكيدون له عن طريق الوفود السرية التي كانت بينهم وبين قريش والتي ظهرت آثارها عند كعب بن الأشرف فيما بعد . فمن ذلك مثلا أن قريشا أرسلت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود يسألونهم عن محمد وخبره باعتبارهم أهل كتاب يعلمون ما لا تعلم قريش ، فقالت لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فروا فيه رأيكم ، وكانت الأسئلة الثلاثة :
(أ) عن أهل الكهف
(ب) عن ذي القرنين
(جـ) عن الروح[3] .

٣ - **الترقب والمعاهدة** : إلا أن محاولات الوثنية واليهود قد أخفقت ونجح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الهجرة إلى المدينة ، وإقامة دولة الإسلام بها ، وظل اليهود يراقبون الصراع بين الوثنية والإسلام ليخططوا على

---

(١) مسيحي من أهل الشام كان قسا عالما فلكيا منجما واسمه في السريانية يعني التبحر في العلم ، وكان على مذهب أربوس ونسطور الذي ينكر ألوهية المسيح وأمه ، وكانت له صومعة في (بصرى) بالشام على الطريق بين مكة والشام وكان يدعو إلى التوحيد ، وقد مرت به قافلة قريش وفيها محمد قبل البعثة فعرف من علاماته أنه النبي المنتظر . .

(٢) أنظر خاتم النبيين ص ٤٦٦ .

(٣) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٣٦ .

ضوء نتـائجه ما يضر بالإسلام ويسدد الضربات إلى ثغراته ومواطن ضعفه ، ولذلك وافقوا على كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ومعاهدته ليتيحوا لأنفسهم فتـرة من الـوقت يستـردون فيهـا أنفاسهم إزاء السرعة التي كانت تتحرك بها الأحداث الإسلامية(١) .

٤ ـ **الجدل والعناد** : وظلوا بعد المعاهدة هادئين يؤملون في أثناء ذلك أن يقر الرسول صلى الله عليه وسلم بأرجحية العقيدة التي يدينون بها ، ويظنون أنهم يتمكنون يوما من استمالته إلى دينهم وإدخاله هو وأصحابه فيه ، غير أن ظنهم قد خاب عندما أدركوا أن محمدا ليس مجرد زعيم يحترف السياسة ، وإنما هو نبي صاحب رسالة عظمى يحملها للعالمين ولذلك فهو الذي يدعوهم للدخـول في دينه لا هم ، فلما كفروا به بدأ القرآن الكريم يفصح ماضيهم وحاضرهم ويكشف سوءاتهم ، وكان الإسلام يتزايد انتشارا وأتباعا ، ويتزايد أتباعه وحدة وتماسكا لذلك أدرك اليهود أن الإسلام هو الخطر الذي يهددهم فقامت بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم محاجات ومجادلات ما لبثت أن اتخـذت من جانبهم موقف التحـدي والتعنت والعنـاد وإن كانت قد أدت بالمعتدلين منهم إلى الإسلام ، فقد روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه بلغه مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فأتاه يسأله عن أشياء ، فلما أجابه النبي صلى الله عليه وسلم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، قال : يا رسول الله : إن اليهود قوم بهت(٢) فأسألهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي فجاءت اليهود فقال النبي صلى الله عليه

(١) دراسة في السيرة/د /عماد الدين خليل ص ٣٢٤ .

(٢) بهت جمع بهوت وهو الذي يقذف بالباطل .

وسلم : أي رجل عبد الله بن سلام[1] فيكم ؟ قالوا خيرنا وابن خيرنا ، وأفضلنا وابن أفضلنا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ قالوا أعاذه الله من ذلك فأعاد عليهم فقالوا مثل ذلك ، فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فقالوا : شرنا وابن شرنا ، وانتقصوه ، قال : هذا كنت أخاف يا رسول الله [2] .

وفي هذا يقول عز وجل : « قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين » [3] .

ومن هنا نعلم أن اليهود كانوا يبيتون النية للإنقضاض على الإسلام وأهله بعد أن اتضح لهم أن طبيعة الدعوة الإسلامية عالمية وأن نبيها صلى الله عليه وسلم ليس منهم ولكنه من العرب ، وأن قيام دولتهم في المنطقة التي سيطر عليها اليهود ماديا وعلميا يهدد مصالحهم ونشاطاتهم المختلفة .

٥ - **الفتنة والوقيعة** : لذلك بدأ اليهود يتعنتون في مواجهة النبي صلى الله عليه وسلم ويرمون الأنصار بقوارض الكلم ويشجعون فئة من الناس على الخداع والنفاق وبدأوا يوقعون بين المهاجرين والأنصار وبين الأوس والخزرج وقاموا بفتنة الناس عن دينهم وصد من يريد الإسلام عنه فمن ذلك :

---

(١) عبد الله بن سلام هذا أحد أحبار اليهود وعلمائهم الصالحين ، وكان اسمه الحصين فلما أسلم سماه النبي ﷺ عبد الله وكنيته أبو يوسف ، وكان حليفاً لبني الخزرج ، وهو من يهود بني قينقاع توفى سنة ٤٣هـ ، وقد سأل النبي ﷺ عن ثلاثة أشياء قبل أن يعلن إسلامه ، وهي : أشراط الساعة ، وأول طعام أهل الجنة والوراثة ، وقد جاءت أجابة النبي ﷺ مطابقة لما يعرفه عبد الله من التوراة فعلم أنه رسول وقال : أشهد أنك رسول الله وأعلن إسلامه .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري / ابن حجر جـ ٨ ص ١٦٥ .

(٣) الأحقاف / ١٠ وانظر في تفسيرها فتح القد ير جـ ص ١٩ .

أنـه لما أوحى الله عز وجل إلى نبيه بتحويل القبلة إلى الكعبة من بيت المقدس أنكروا ذلك وحاولوا فتنة النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه بقولهم أنهم سيتبعونه إن رجع إلى قبلته الأولى .

ويوما بعد يوم أشتد النفور بين الطرفين وكثرت بينهم الخصومات وبدأت الكراهية والبغضاء تأخذ شكلا علنيا فنزل القرآن الكريم ينهى عن الإختلاط بهم واتخاذ بطانة منهم « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم »(١) .

مما سبق يتضح لنا أن العلاقات في هذه المرحلة السلمية كانت تعتمد على ما أرساه الإسلام من مباديء الأخوة والوفاء والعفو والتسامح وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين قد سعـوا إلى تطبيق تلك المبـاديء في معاملتهم مع اليهود .

أمـا اليهـود فقد قابلوا ذلك بالحقد والعداوة وعبروا عن ذلك بسلوكيات عديدة فهم مرة يحاولون الإعتداء على الرسول صلى الله عليه وسلم(٢) ، ومرة يجـادلـونـه ويحـاجـونـه(٣) ، ومـرة يعـاهـدونـه ويضمـرون له ولأهله الشر والكراهية(٤) ، ومرة يعلنون عن ذلك ويوقعون بين المسلمين ويثيرون الفتن بينهم(٥) رغبة في أضعافهم وتقليم شوكتهم حتى تبقى السيادة لليهود ، ولكن

(١) آل عمران ١١٨/١١٩ .
(٢) كما حدث من بني النضير وفي فتح خيبر .
(٣) كما حدث في موضوع تحويل القبلة .
(٤) كما حدث مع بني قريظة .
(٥) كما حدث في الوقيعة بين الأوس والخزرج وتذكيرهم بيوم بعاث ، .

القرآن الكريم تصدى لهم وفضح أمورهم وحذر المسلمين من ولايتهم واتخاذ بطانة منهم .

وفي ذلك يقول الشيخ محمد أبو زهرة : عقد النبي صلى الله عليه وسلم حلفا مع اليهود جعل فيه : له ما لهم وعليه ما عليهم ، وتعاهد معهم على البر والتقوى لا على التعاون على الأثم ، وأنهم في أحيائهم متعاونون على دفع الإثم وعقل الجاني الذي تجب عليه الدية ، وفي الجملة أعطاهم الحرية والحماية وعقد معهم جماعة وأحياء متفرقة عقدا ملزما ، ولكن الحسد كان يسكن قلوبهم من أن الرسول الذي بعث كانوا يتمنون أن يكون من ولد إسحق لا من ولد إسماعيل ، وقد كانوا يعرفون أن نبيا سيبعث ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حسدا من عند أنفسهم ، وكلما استيقنوا أنه النبي المبشر به في التوراة أزدادوا ضيقا وغضبا وكفرا ، وكلما وجدوا آيات النبوة زادتهم طغيانا وضلالا وعتوا وفسادا في الأرض ، وكأنهم وحدهم سلالة قابيل الذي قتل أخاه . . . وقد ثبت أكثر اليهود على اعتقادهم وجاهدوا بالبقاء عليه والاعتراض الديني على النبي صلى الله عليه وسلم ولكنهم نافقوا في أنهم لم يخلصوا في العهد الذي عاهدهم عليه النبي صلى الله عليه وسلم بل كانوا يخفون الخيانة بالمسلمين الدوائر ويكاتبون أعداء النبي صلى الله عليه وسلم ويحرضونهم عليه ويسرفون على أنفسهم فينافقون المشركين ، ويقولون إن ما هم عليه من شرك خير مما يدعوا إليه النبي صلى الله عليه وسلم من توحيد[1] .

وقال في موضع آخر عن المنافقين واليهود : « وكانوا هم والذين بقوا على يهوديتهم من يهود أشد الناس أذى للنبي وأصحابه ، فالمنافقون كانوا يبثون في المسلمين روح التردد والهزيمة وفي المسلمين سماعون لهم ، كما قال الله تعالى[2] :

---

(١) خاتم النبيين ص ٧٨٢ .

(٢) الآيات ٤٦-٤٨ من سورة التوبة .

« واليهود من وراء المنافقين يتعاونون معهم ، ويكيدون معهم ، ويمكرون ويمكر الله تعالى بإفساد تدبيرهم » ، وكاد اليهود ليلقوا الشك في قلوب المؤمنين ، يظهرون الإيمان ثم يعلنون الردة ليشجعوا المسلمين على الردة وليكونوا لهم مثلا لمن يخرج من الإسلام بعد الدخول فيه كما قال الله تعالى : « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون »(١) وهكذا كان الإفساد اليهودي ينافقون ، ويدعون الوثنيين إلى النفاق ، ويبثون بنفاقهم روح الفرقة بين المسلمين و يستهزئون ويسخرون من أهل الإيمان ، ويجعلون من أنفسهم مثلا لمن يخرج عن الإسلام فيظهرون الإسلام ثم يخرجون ليكونوا مثلا سيئا للمسلمين لعلهم يرجعون (٢) ، وسنرى بعد ذلك كيف تطورت الأمور .

ب ـ في الحرب : أسبابها ونتائجها :

بعد تلك المباديء التي أرساها الإسلام في العلاقات ، وبعد تلك الممارسات السلمية التي أعلنها وطبقها الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة مع اليهود ، من غير المعقول أن يقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمخالفة ما اتفق عليه وجاء به إلا لضرورة ، وكانت الضرورة تأتي في كل مرة من جهة اليهود وبإسباب منهم ، فإن الأحقاد التي أكلت قلوبهم على الإسلام وأهله دفعتهم إلى إعلان العداء له وعليه ، وحبك المؤامرات ضده وضد أهله وإثارة الفتن والقلاقل بين صفوفه والتعاون مع أعداء المدينة وأهلها ضدهم ، فاضطر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معاملتهم بالمثل لإيقاف خطرهم ومنع أضرارهم ، فكان يشن الحرب على الفئة اليهودية التي تبدأ بالعدوان وتنقض العهد وتعلن العداء ، وسنرى تفصيل ذلك في الوقائع التالية :

---

(١) آل عمران ٧٢ .

(٢) خاتم النبيين ص ٧٨٦ .

١ ـ مع بني قينقاع :

عرفنا أن بني قينقاع إحدى قبائل المدينة الكبرى ، وأنهم كانوا يقيمون في وسط المدينة ويشتغل معظمهم بصياغة الذهب وتجارته ولهم سوق سمي باسمهم ، وأنهم دخلوا العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن هنا كان المفروض أن يقف هؤلاء اليهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حربه ضد الكفار في غزوة بدر ، ولكنهم على العكس من ذلك أخذوا يروجون الشائعات ضد المسلمين ، ويشنون حربا نفسية ضد الرسول صلى الله عليه وسلم ودعاته ويمارسون التجسس على المسلمين لصالح المشركين ، حيث نقلوا كافة المعلومات عن نوايا المسلمين وحركاتهم إلى قريش ، كما أنهم قد تلقوا رسالة من قريش تحرضهم فيها على قتل الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأظهروا للرسول صلى الله عليه وسلم الحسد والبغض بعد انتصاره على المشركين في بدر وقالوا : لم يلق محمد من يحسن القتال ، ولو لقينا لاقى عندنا قتالا لا يشبه قتال أحد ، وأظهروا نقض العهد فجمعهم صلى الله عليه وسلم في سوق بني قينقاع وقال لهم : يا معشر اليهود : إحذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة واسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم وفي عهد الله إليكم ، قالوا : يا محمد إنك ترى أنا مثل قومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس »[١] .

وقال ابن إسحق : حدثني مولى ليزيد بن ثابت عن سعيد بن جبير وعن عكرمة عن ابن عباس قال : ما نزلت هؤلاء الآيات إلا فيهم « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار »[٢] .

(١) البداية والنهاية لإبن كثير جـ٤ ص ٤ وفتح القدير جـ١ ص ٣٢١ .
(٢) آل عمران /١٢ ، ١٣ وانظر : عون الباري جـ٦ ص ٢٣٤ .

فالذين كفروا هم اليهود ، والفئة التي تقاتل في سبيل الله محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، والفئة الكافرة المشركون .

قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم عن عمر بن قتادة أن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا العهد وحاربوا فيما بين بدر وأحد (١) .

وقال ابن هشام : كان أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب(٢) لها فباعته بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهوديا وشددت اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع(٣) .

أسباب غزوتهم :

مما سبق يتبين أن اليهود كانوا مشعلي الفتنة ومؤججي نارها ، فلم يقاتلوا المشركين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يهنئوهم بالنصر ، ولم يقفوا محايدين ، بل قاموا يبكون الكفار ويهجون المسلمين ويشنون الحرب النفسية عليهم ، ولم يعتبروا بما حدث للمشركين ، ولم يحافظوا على عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتهكوا حرمة سيدة من سيدات العرب من الأنصار وقتلوا المسلم الذي دافع عنها .

لذلك تبرأ من حلفهم عبادة بن الصامت أحد رؤساء الخزرج وتشبث

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص٤ .

(٢) جلب : ما يباع .

(٣) تهذيب سيرة ابن هشام ص١٧١ .

بالحلف عبد الله بن أبي ، قال ابن إسحاق : حدثني أبي عن عبادة بن الوليد عن عبادة بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من بني عوف له من حلفهم مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي فخلعهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم ، وقال : يا رسول الله أتولي الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم ، قال : وفيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذو اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين (١) .

وعندما تظاهر يهود بني قينقاع بالعداوة وتحصنوا بحصونهم سار إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم في نصف شوال من السنة الثانية من الهجرة يحمل لواءه عمه حمزة بن عبد المطلب وخلف على المدينة أبا لبابة بشير بن عبد المنذر .

الغزوة :

حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني قينقاع في حصونهم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمه صلى الله عليه وسلم الذي قضى بإجلائهم دون أن ينزل بهم أي عقوبة فخرجوا إلى أذرعات (٢) وأشرف على إجلائهم عبادة بن الصامت ، ولم يحل عليهم الحول حتى هلكوا (٣) .

وقد روي أن عبد الله بن أبي بن سلول قام إلى رسول الله صلى الله عليه

(١) المائدة ٥١، ٥٢ وانظر في بيان سبب نزول الآية فتح القدير جـ٢ ص٥٢ .
(٢) أذرعات : بلدة بالشام .
(٣) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين / محمد الخضري ١٢٨ ، وخاتم النبيين ص ٨١٤ .

وسلم حين أمكنه الله عز وجل من بني قينقاع فقال : يا محمد أحسن في مواليّ وكانوا حلفاء الخزرج ، قال : فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد أحسن موالي ، فأعرض عنه ، قال : فأدخل يده في جيب درع النبي صلى الله عليه وسلم ، قال ابن هشام : وكان يقال لها ذات الفضول ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسله ، وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأوا لوجهه ظللا ، ثم قال : ويحك أرسلني ، قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة ، إني والله أمرؤ أخشى الدوائر ، قال : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم لك [١] .

فانظر إلى سوء نوايا اليهود من بني قينقاع وعداوتهم للإسلام والمسلمين وإلى تحذير رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ثم عفوه عنهم بعد أن أمكنه الله عز وجل منهم .

وفي ذلك يقول الشيخ أبو زهرة : « أخذ بنو قينقاع من قبل ما حدث مع المرأة وما كان من تهديد يتطاولون على المسلمين بالسب والأذى والتحامل وعدم صون لسانهم عن المسلمين والإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم يصابرهم ويوفي بعهدهم حتى كان منهم القتل . . . وإن أمر بني قينقاع قد انتهى بإجلائهم وطهرت المدينة من أرجاسهم وما كان ذلك اعتداء من النبي صلى الله عليه وسلم بل كان ذلك لرد اعتدائهم ولنقضهم للعهد ولأنهم صاروا جيران سوء يحق إجلاؤهم ليسلم الناس من فسادهم »[٢] .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص٥ ، والحاسر الذي لا درع له ، والدارع الذي يلبس الدرع .

(٢) خاتم النبيين ص ٨١٤-٨١٦ .

النتائــج :

بهـذه الغزوة استراح الإسلام والمسلمون والمدينة من واحدة من قبائل اليهـود الثـلاث ، فازدادت وحـدة المـدينة تماسكا وأزداد اليهود ضعفاً وكان لإجلاء بني قينقاع وقع عظيم في نفوس باقي اليهود ، فقد امتنعوا في أعقاب ذلـك عن المجـادلـة الـدينية ، وكفوا عن رمي المسلمين بقوارص الكلم ، ودخلت هيبة المسلمين في قلوب البطون العربية التي لم تكن قد دخلت في الإسلام ، وانفسح المجال أمام النبي صلى الله عليه وسلم لنشر دعوته [١] .

٢ ـ مع كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف زعيما من زعماء اليهود بعامة وبني النضير بخاصة ، وقد تحمل وحده من الحقد والبغضاء والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين مثل ما تحملت قبيلة بأسرها ، وأعلن عن ذلك في وضوح وأكده بممارسات فعليه ومواقف علنية ، فدارت عليه الدوائر ، وجنى ثمار حقده ، وأراق رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه ، وعلى الباغي تدور الدوائر ، وقد رويت في قتله عدة روايات منها هذه الرواية التي تبين لنا الأسباب : قال محمد بن إسحق : كان من حديث كعب بن الأسرف أنه لما بلغه عن مقتل أهل بدر حين قدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة قال : « والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها » .

فلما تيقن عدو الله الخبر خرج إلى مكة ، فنزل على المطلب بن أبي ضبيرة السهمي وعنده عاتكـة بنت أبي العيص بن أمية بن عبـد شمس بن مناف ، فأنزلته وأكرمته ، وجعل يحرض على قتال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) دراسة في السيرة /د / عماد الدين خليل ص ٣٣٦ نقلا عن ولفنسون (تاريخ اليهود) ص ١٣١ .

وسلم وينشد الأشعار ويندب من قتل من المشركين يوم بدر ، فذكر ابن إسحاق قصيدته التي أولها :

طحنت رحى بدر لمهلك أهله — ولمثل بدر تستهل وتدمع

وذكر جوابها حسان بن ثابت ، ثم رجع إلى المدينة فجعل يشبب بنساء المسلمين ، فمن ذلك قوله في أم الفضل بنت الحارث :

إحدى بني عامر جن الفؤاد بها — ولو تشاء شفت كعبا من السقم
لم أر شمسا بليل قبلها طلعت — حتى تجلت لنا في ليلة الظلم

وتحول من أم الفضل إلى نساء مسلمات أخريات ، مشببا بهن حتى آذاهن [1] وأخذ كعب يهجو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، قال موسى بن عقبة : كان كعب بن الأشرف أحد بني النضير أو فيهم قد آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجاء وركب إلى قريش فاستعداهم وقال له أبو سفيان وهو بمكة : أناشدك أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه ، وأينا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحق ، أنا نطعم الجزور الكوماء[2] ، ونسقي اللبن على الماء ، ونطعم ما هبت الشمال ، فقال له كعب بن الأشرف : أنتم أهدى منهم سبيلا ، قال : فأنزل الله على رسوله : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا »[3] .

قال موسى بن إسحق ، وقدم المدينة يعلن بالعداوة ويحرض الناس على

---

(١) دراسة في السيرة / خليل ص ٣٣٧ .

(٢) الكوماء : عظيمة السنام .

(٣) النساء ٥١/٥٢ وانظر تفسيرها فتح القدير جـ٢ ص ٤٧٩ والجبت : الساحر والطاغوت : الكاهن وقيل هما كعب بن الأشرف ، وقيل كل ما عبد من دون الله .

الحرب ولم يخرج من مكة حتى جمع أمرهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يشبب بنساء المسلمين . قال بن إسحق : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لي بابن الأشرف ، فقال له محمد بن مسلمة أخو بني عبد الأشهل : أنا لك به يا رسول الله ، أنا أقتله ، قال : فافعل إن قدرت على ذلـك ، فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثا لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق نفسه ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : لم تركت الطعام والشراب ؟ فقال : يا رسول الله قلت لك قولا لا أدري هل أفي لك به أم لا ؟ وقال : إنما عليك الجهد ، قال : يا رسول الله : إنه لا بد لنا أن نقول [1] ، قال : فقولوا ما بدالكم فأنتم في حل من ذلك ، قال ، قال فاجتمع في قتله محمـد بن مسلمـة وسلكـان بن سلامـة بن وقش وهو أبو نائلة أحد بني عبد الأشهل ، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة وعباد بن بشر بن وقش أحد بني عبد الأشهل وأبو عيسى بن جبير أحد بني حارثة قال : فقدموا بين أيديهم إلى عدو الله كعب سلكان بن سلامة أبا نائلة فجاءه فتحدث معه ساعة فتناشدوا شعرا ، وكان أبو نائلة يقول الشعر ثم قال : ويحك يا إبن الأشرف إني قد جئتك لحاجة أريد أن أذكـرهـا لك فاكتم عني قال : إفعل ، قال : كان قدوم هذا الرجل - يقصد محمدا - علينا بلاء عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت عنـا السبيل حتى ضاع العيال وجهـدت الأنفس وأصبحنـا قد جهـدنا وجهد عيالنا ، فقال كعب بن الأشرف أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر يصير إلى ما أقول ، فقال له سلكان : إني قد أردت أن تبيعنا طعاما ونرهنك ونوثق لك ونحسن في ذلك ، قال : أترهنوني أبناءكم ؟ قال : لقد أردت أن تفضحنا إن معي أصحابي على مثل رأيي ، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك ونرهنك من الحلقة [2] ما فيه وفاء وأراد سلكان أن لا ينكر

(١) يريد أننا لتحقيق هذا الغرض لا بد أن نكذب ، وقد بوب البخاري عليه « الكذب في الحرب » .

(٢) الحلقة : السلاح .

السلاح إذا جاءوا بها ، فقال : إن في الحلقة لوفاء ، قال: فرجع سلكان إلى أصحـابه فأخبرهم خبره وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه فاجتمعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن إسحاق : فحدثني ثور بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس قال : مشى معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بقيع الغرقد ثم وجههم قال : انطلقوا على إسم الله ، واللهم أعنهم « ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته وهو في ليلة مقمرة . . . فانطلقوا حتى انتهوا إلى حصنه فهتف به أبو نائلة ، وكان حديث عهد بعرس فوثب في ملحفتـه فأخـذت امرأته بناحيتها وقالت : أنت امـرؤ محارب وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة ، قال ٠ إنه أبو نائلة لو وجدني نائماً ما أيقـظني ، فقـالت : والله إني لأعـرف في صوته الشر ، قال : يقول لها كعب : لو دعي الفتى لطعنته أجاب ، فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه ثم قالوا : هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز فنتحدث به بقية ليلتنا هذه ؟ قال : إن شئتم ، فخرجوا فمشوا ساعة ثم إن أبا نائلة شام في فود [١] رأسه ثم شد يده فقال : ما رأيت كالليلة طيبا أعطر قط ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلهـا فأخـذ بفودى رأسه ثم قال : اضربوا عدو الله فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئا ، قال محمد بن مسلمة فذكرت مغولا [٢] في سيفي فأخذته وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار قال : فوضعته في ثنته [٣] ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته فوقع عدو الله . . . فأصبحنا وقد خافت يهود لوقعتنا بعدو الله فليس بها يهودي إلا وهو خائف على نفسه [٤]

---

(١) فود رأسه : جانبه من جهة الأذن

(٢) مغولا : سكينا

(٣) ثنته : ما بين السرة والعانة

(٤) البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص ٩ وانظر : عون الباري بشرح صحيح البخاري جـ٦ ص ٢٣٧-٢٤٠

تلك هي قصة قتل كعب بن الأشرف ومنها يتبين أنه الذي بدأ بالشر وآذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إيذاء شديدا ، واجتمع بالمشركين وحرضهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان تحريضه هذا واحدا من أسباب غزوة أحد ، وهجا المسلمين وسخر من انتصارهم في غزوة بدر الكبرى وشبب بنسائهم منتهكا أعراضهم .

. . . إلى غير ذلك من أفعاله وأقواله التي أغضبت الرسول صلى الله عليه وسلم كما جاء على لسانه بعد ، ورأى من خلالها أنه نقض العهد مع النبي صلى الله ليه وسلم فأراق دمه وكان ما كان من شجاعة أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم كما رأينا .

وعن كعب بن الأشرف وجزائه يقول الشيخ أبو زهرة : « هذه حال فردية ولكنها ذات صلة بسير الحروب بين أهل مكة المشركين والنبي صلى الله عليه وسلم وما كان يقوم به اليهود في هذه المعارك آحادا وجماعات من تحريض للمشركين وتخذيل للمؤمنين وبث روح التردد والهزيمة في أهل المدينة وإثارة الحروب في مكة ، وكلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله تعالى ، وكان كعب ابن الأشرف يقوم في ذلك بأعمال خطيرة تؤجج النيران ضد المؤمنين ولم يدخل مع النبي صلى الله عليه وسلم في عهد ولم يقف منه ولا من المؤمنين موقف المسالمة أو يعتزل بل أظهر العداوة وعمل تحت سلطانها [1] . ثم أخذ يعدد المواقف التي سبقت الإشارة إليها . ثم قال : هذا ما يفعله الرجل اليهودي المنطلق من كل العهود والمواثيق ، أيسكت النبي صلى الله عليه وسلم وهو المحارب الحذر الذي يهجم على مداخل الأذى قبل أن يلج منه العدو ، أم يعلنها على قومه أو من ينتمي إليهم من بني النضير وأكثرهم لم ينالوا بمثل ما

---

(١) خاتم النبيين ص ٨١٨

نال ، ولا تزر وازرة وزر أخرى والنبي عليه الصلاة والسلام لا يَعلن الحرب إلا على من أعلنها ولما يعلنوها . أم يسكت ويترك الشر يستشري ويحاكيه في أفعاله بقية يهود ، لاشك أن آخر الدواء الكي ، إنه لابد أن يجتث الداء من موضعه ولا يتركه حتى يفسد الجسم كله ، ولا منجاة حينئذ ، لم يبق إلا أن يقتل كعبا حسما لمادة الفساد [1] .

النتائــج :

وكان في مقتل كعب بن الأشرف تأديب لليهود وتخويف لهم فدب الرعب في قلوبهم العنيدة وأسرعت الأفاعي إلى جحورها تختبيء فيها ، وأجدت العصا حين أعيت النصيحة وبطل المقال ولزم اليهود حدودهم فلم يتجرأوا على المسلمين بسبب ، وظهر كأنهم لن يمالئوا على الله ورسوله مشركا بعد اليوم ودفعهم الفزع إلى مقابلة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قالوا له : قد طرق صاحبنا الليلة وهو سيد من ساداتنا ، قتل غيلة بلا جرم ولا حدث علمناه ، فأجابهم الرسول صلى الله عليه وسلم : إنه لو قر كما قر غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل ولكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان له السيف ، ثم ما لبث أن عرض عليهم أن يكتب بينهم كتابا ينتهون إلى ما فيه فأجابوه إلى ذلك حيث أصابهم الخوف والذل [2] .

وهكذا تفرغ الرسول صلى الله عليه وسلم - إلى حين - لمواجهة الأعراب المشركين [3] .

ولا يظن أحد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قاسيا على كعب بن الأشرف فحاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون قاسيا وهو الذي سماه

---

(١) السابق ص ٨٢٠

(٢) دراسة في السيرة / خليل ص ٣٣٨

(٣) فقه السيرة / الغزالي ص ٢٦٤

ربه الرؤوف الرحيم ، فكيف يقسو على كعب أو غيره ، بل كان عادلا كل العدل ، فكعب هو الذي بدأ ينقض العهد وإيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فاستحق الجزاء . ومما يؤكد هذا إجابة الرسول صلى الله عليه وسلم السابقة « إنه لو قر مثل ما قر غيره ممن هو على رأيه ما اغتيل . . .

قال الشيخ أبو زهرة في هذه الشبهة والرد عليها : ولقد وجدنا من الغربيين من أثار زوبعة حول النبي صلى الله عليه وسلم وكيف يأمر بالقتل غيلة . . . وهذا يتنافى مع الرسالة الإلهية كما يتنافى مع أصل القتل كما كان من عيسى عليه السلام الذي يروون عنه أنه قال : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، ونقول في الجواب عن ذلك : إن قمع أعداء الدعوة الدينية لا يتنافى مع الرسالة فموسى عليه السلام وهو من أولي العزم من الرسل قد قتل بيده وقاتل ودعا بني إسرائيل إلى القتال وما تنافى ذلك مع رسالته الإلهية التي نزلت بها التوراة وهي كتب العهد القديم المقدسة عند اليهود والنصارى معا ، ويحسبون أن الرحمة النبوية تمنع القتل والقتال ، ونقول في ذلك أن القتل المشروع يكون بباعث من الرحمة ، فليست رحمة النبوة انفعاله رعناء تكون على موضع البرء والسقم ، إنما رحمة النبوة تكون بالكافة ، ومن الرحمة بالكافة أخذ المذنب بذنبه ومنع الفساد في الأرض[1] .

« كما أن رسول الله صلي الله عليه وسلم وقف موقفاً آخر مع مخيريق وهو يهودي وقف موقفاً حسناً ، قال ابن اسحاق : وكان ممن قتل يوم أحد مخيريق وكان أحد بني ثعلبة من النطيون فلما كان يوم أحد قال : يامعشر يهود : والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق قالوا إن اليوم يوم السبت قال : لا سبت لكم ، فأخذ سيفه وعدته وقال : إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما يشاء ، ثم غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتل معه حتى قُتل ، فقال رسول الله

(١) خاتم النبيين ص٨٢٢

صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا : «مخيريق خير يهود» قال السهيلي : فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أموال مخيريق - وكانت سبع حوائط - أوقافاً بالمدينة لله قال محمد بن كعب القرظي : «وكانت أول وقف بالمدينة»[1]

فهذه شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمخيريق لأنه نطق بالحق وجاهد مع الحق ووقف أمواله في سبيل الحق فرسول الله صلى الله عليه وسلم مع الحق حيثما كان .

٣ - مع بني النضير :

ونأتي إلى القبيلة الثانية من قبائل اليهود الكبرى في المدينة وهي « بنو النضير » وقد كانوا في أمان بمعاهدتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان في وسعهم أن يبقوا كذلك ، ولكنهم للأسف لم يحافظوا على العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعتبروا مما حدث لأخوانهم بني قينقاع من جزاء نقض العهد بل استجابوا لنداء الحقد في قلوبهم والخيانة تجري في عروقهم وقاموا بمؤامرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم إليك تفاصيلها :

قال ابن إسحق : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمر بن أمية[2] للعهد الذي كان صلى الله عليه وسلم أعطاهما ، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عهد وحلف فلما أتاهم صلى الله عليه وسلم قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله[3] - ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمن رجل يعلو على البيت فيلقي عليه صخرة ويريحنا منه ،

---

(١) البداية والنهاية جـ٤ ص ٤٢

(٢) وقد قتلهما يريد أن يصيب بذلك ثأرا من بني عامر فيما أصابوا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يوم بئر معونة .

(٣) أي لن تجدوا فرصة خيرا من هذه للنيل منه .

فانتدب لذلك عمر بن جحاش بن كعب فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقي على النبي صلى الله عليه وسلم صخرة . . فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعا إلى المدينة فلما استلبث [1] النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه - وقد كانوا معه ومنهم أبو بكر وعمر وعلي - قاموا في طلبه فلقوا رجلا مقبلا من المدينة فسألوه عنه فقال : رأيته داخلا المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهوا إليه فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به .

قال الواقدي : فحاصرهم خمس عشرة ليلة

قال ابن إسحاق : وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم .

قال ابن هشام : واستعمل علي المدينة ابن أم مكتوم وذلك في شهر ربيع الأول ، قال ابن إسحق : فسار حتى نزل بهم فحاصرهم ست ليال ، ونزل تحريم الخمر حينئذ وتحصنوا في الحصون فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل والتحريق فيها[2] ، فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟ قال : وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي وديعة ومالك وسويد وداعس قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا وقذف الله في قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة[3] .

---

(١) وجدوا أنه طال اللبث : تأخر .

(٢) سنن ابن ماجه باب التحريق بأرض العدو حديث رقم ٢٨٤٤ .

(٣) السلاح .

وقال العوفي عن ابن عباس : أعطي كل ثلاثة بعيراً يتعقبونه (يتبادلون الركوب عليه واحداً عقب الآخر) ووسقاً ، قال ابن إسحق : ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان وهما يامين بن عمير بن كعب ابن عم عمر بن جحاش وأبو سعد بن وهب فأحرزا أموالهما .

قال ابن إسحق : وحدثني بعض آل يامين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليامين : ألم تر ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأني . . فجعل يامين لرجل جعلا على أن يقتل عمر بن جحاش فقتله لعنه الله قال ابن اسحاق : فأنزل الله فيهم سورة الحشر بكمالها يذكر فيها ما أصابهم به من نقمته وما سلط عليهم ، به رسوله وما عمل به فيهم[1] فمن ذلك قوله عز وجل : « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب . ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين »[2] .

وقوله في شأن المنافقين : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون »[3] .

---

(١) البداية والنهاية جـ٤ ص ٨٥/٨٦ وانظر أيضا ابن هشام ص ٢٠٣/٢٠٦ والسيرة النبوية للندوي ص ١٩٥ وخاتم النبيين ص ٨٩٠-٨٩٢ .

(٢) الحشر ٢-٥ . (٣) الحشر ١١/١٢ .

« النتائج »

ومن هذا يظهر أن اليهود يهود بني النضير هم الذين بدأو بنقض العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنهم هم الذين تآمروا على قتله وهو في ضيافتهم يريد الإستعانة بهم ، ولقد كان ذلك الجرم كفيلا بحربهم والقضاء عليهم ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الرؤوف الرحيم يبعث إليهم أولا من ينذرهم بالجلاء ، فلما لم يفعلوا وتحصنوا بحصونهم واعتمدوا على معونة المنافقين ووعودهم حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قادرا على إبادتهم ولكنه مع هذا كان رحيما بهم فاستجاب لطلبهم في الجلاء وما تحمله إبلهم من الأموال إلا السلاح فأذن لهم بذلك ، فمنهم من ذهب إلى الشام ، ومنهم من ذهب إلى خيبر كما لقي عمر بن جحاش بطل المؤامرة جزاءه العادل فقتل ، وكان ذلك على يد ابن عمه يامين .

وبهـذا استراح الإسلام والمسلمون - إلى حين من شر هذه الفئة التي دارت عليها دوائر بغيها وظلمها ، وتوطد سلطان المسلمين في المدينة وتفرغ رسـول الله صلى الله عليه وسلم وأصحـابـه لتـأديب غيرهم من المشـركين والأعراب الذين نالوا من أصحابه صلى الله عليه وسلم يوم الرجيع وبئر معونه[1] وغيرهـا ، كما كان في الأموال التي تركوها عون لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحـابـه من فقراء المهاجرين حتى يتحقق لهم التوازن الإقتصادي والعيش مع أخوانهم الأنصار .

---

(١) هما يومـان قتـل فيهـا عدد من أصحاب رسول الله ﷺ غدرا ففي يوم الرجيع قتل ستة من الصحابة كانوا قد ذهبوا مع القوم لتفقيههم ودعوتهم للإسلام ، وفي يوم بئر معونة قتل سبعون كانوا قد ذهبوا لنفس الغرض فغدر بهم من تظاهروا بالإسلام وقتلوهم وكان كلا اليومين في صفر من السنة الرابعة من الهجرة ٦٢٥م .

انظر : الاصطفا حـ ٢ ص ١٩٦ - ٢٠٠

٤ - مع بني قريظة :

وهي القبيلة الثالثة الكبرى من قبائل اليهود ، وقد كانوا كغيرهم من اليهود في عهد النبي صلى الله عليه وسلم منذ هجرته إلى المدينة على عهد وأمان ، ولكنهم أيضا كغيرهم من اليهود طبعوا على الغدر والخيانة والنفاق والتآمر وفي كل مرة يظهر الله عز وجل مكرهم وخيانتهم وينصر رسوله صلى الله عليه وسلم عليهم ، ويعز الإسلام وأهله دونهم .

وعلى الرغم من أن بني قريظة ممثلين في أحد زعمائهم كانوا راغبين في الوفاء بالعهد أو خافوا من عواقب النقض أن يحل بهم مثل الذي حل بإخوانهم بني قينقاع وبني النضير فاعتبروا ، بل أن منهم من أسلم ودعاهم إلى الإسلام ، وهو عمر بن سعد القرظي الذي قال لقومه بني قريظة : رأيت اليوم عبرا وقد عبرنا بها ، رأيت منازل إخواننا خالية بعد ذلك العز والمجد والشرف الفاضل والعقل البارع قد تركوا أموالهم وملكها غيرهم وخرجوا خروجا ذليلا ، وأوقع ببني قينقاع فأجلاهم وهم أهل عدة وسلاح ونجده فحصرهم ، فلم يخرج إنسان منهم وأسر باقوهم حتى سباهم وكلم فيهم فتركهم على أن أجلاهم من يثرب ، يا قوم قد رأيتم ما رأيتم فأطيعوني وتعالوا نتبع محمدا ، والله إنكم لتعلمون أنه نبي قد بشرنا به . . . فأسكته القوم ولم يتكلم أحد إلا كعب بن أسد ، قال له : ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه ؟ قال : أنت يا كعب ، قال : فلم وما حلت بينك وبينه قط ، وقال بعض اليهود الحاضرون : بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا فإن اتبعته اتبعناه وإن أبيت أبينا [1] . إلا أن أصلهم وطبيعتهم تغلبت عليهم ، وما هي إلا مداولات بسيطة بينهم وبين إخوانهم اليهود والمشركين حتى نقضوا العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدارت عليهم الدوائر وحل بهم وبال أمرهم ، وكان عاقبة أمرهم خسرا ، وإليك البيان :

---

(١) خاتم النبيين ص ٩٠٤ .

قال ابن إسحق : كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضري وحيي بن أخطب النضري وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس الوائلي وأبو عمار الوائلي في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقالت لهم قريش : يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فهم الذين أنـزل الله فيهم « ألم تر إلى الـذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا »[1] فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا لذلك واتحدوا له ، ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروهم أنهم يكونون معهم عليه وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك واجتمعوا معهم فيه[2] .

فاليهـود كما نرى هم الذين سعوا إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى تأليب الأحـزاب عليه وعلى أصحـابـه ، وهم الـذين تآمـروا مع المشركين على استئصاله واستئصال دعوته ، وهم الذين شهدوا ظلما وعدوانا بأن الشرك والوثنية خير من التوحيد والإسلام وأن المشركين خير وأهدى سبيلا من المؤمنين .

قال موسى بن عقبة : ولما نزل الأحزاب حول المدينة ، أغلق بنو قريظة حصنهم دونهم ، قال ابن إسحاق : وخرج حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقدهم وعهدهم ، فلما سمع به كعب أغلق باب حصنه دون حيي ، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له ، فناداه : ويحك يا

(١) النساء : ٥١ .

(٢) البداية والنهاية جـ٤ ص ١٠٦/١٠٧ .

كعب افتح لي ، قال ويحك يا حيي إنك امرؤ مشئوم ، وإني قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاء وصدقا [1] ، قال : ويحك افتح لي أكلمك ، قال : ما أنا بفاعل قال : والله إن أغلقت الحصن دوني إلا خوفا على جشيشتك[2] أن آكل معك منها فاحفظ الرجل[3] ففتح له ، فقال ويحك يا كعب ، جئتك بعز الدهر وببحر طام[4] قال : وما ذاك ؟ قال : جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال[5] من دومة وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقي[6] إلى جانب أحد وقد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه ، فقال كعب : جئتني والله بذل الدهر وبجهام[7] قد هراق ماؤه يرعد ويبرق وليس فيه شيء ، ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا وفاء وصدقا ، وقد تكلم عمرو بن سعد القرظي فأحسن وذكرهم ميثاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده ومعاقدتهم إياه على نصره ، وقال : إذا لم تنصروه فاتركوه وعدوه[8] قال اين إسحاق : فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب[9] حتى سمح له -يعني- في نقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي محاربته مع الأحزاب على أن أعطاه حيي عهد الله وميثاقه لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك ، فنقض كعب بن أسد العهد وبريء مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) وهذه شهادة حق .

(٢) طعام من البرا المجروش ، وهذا اتهام بالبخل .

(٣) أحفظه : أغضبه .

(٤) مرتفع كثير الماء والمراد خير كثير أو جيش كبير يهلك من يقابله كالبحر يغرق من يعارض موجه .

(٥) مكان بجوار المدينة .

(٦) مكان قريب من أحد .

(٧) سحاب لا ماء فيه .

(٨) أي لا تتحالفوا مع عدوه عليه .

(٩) الذروة والغارب أعلى ظهر البعير ، والمراد لم يزل يخادعه كما يخادع البعير .

قال موسى بن عقبة : « وأمر كعب بن أسد وبنو قريظة حيي بن أخطب أن يأخذ لهم من قريش رهائن تكون عندهم لئلا ينالهم ضيم إن رجعوا ولم يناجزوا محمدا ، قالوا : وتكون الرهائن تسعين رجلا من أشرافهم فنازلهم حيي على ذلك ، فعند ذلك نقضوا العهد ومزقوا الصحيفة التي كان فيها العقد إلا بني سعنة أسد وأسيد وثعلبة فإنهم خرجوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ابن إسحق : فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى المسلمين بعث سعد بن معاذ وهو يومئذ سيد الأوس وسعد بن عبادة وهو يومئذ سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وخوان بن جبير وقال : انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم فتنظروا أحق ما بلغنا عنهم ، فإن كان حقا فالحنوا لي لحنا أعرفه ، ولا تفتوا في أعضاد المسلمين [1] ، وإن كانوا على الوفاء فأجهروا به للناس ، قال : فخرجوا حتى أتوهم فدخلوا معهم حصنهم فدعوهم إلى الموادعة وتجديد الحلف فقالوا : الآن وقد كسر جناحنا وأخرجهم -يريدون بني النضير- ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل سعد بن عبادة يشاتمهم فأغضبوه ، فقال له سعد بن معاذ : إنا والله ما جئنا لهذا ، وما بيننا أكبر من المشاتمة ، ثم ناداهم سعد بن معاذ فقال : إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يا بني قريظة ، وأنا خائف عليكم مثل يوم بني النضير أو أمر منه ، فقالوا : أكلت أير أبيك[2] فقال : غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن .

فانظر إلى هذا السخف من جانبهم ، لم يكتفوا بنقض العهد ، بل نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وفحشوا في القول مع أصحابه الذين أوفدهم إليهم ، ولم يأخذوا بنصيحة سعد بن معاذ في الوقت الذي نجد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصدق الشائعة ، ويبعث من أصحابه من

(١) حين يشعرون بتخلي حليفهم من بني قريظة عنهم .

(٢) انظر إلى الفحش في القول وبذاءة اللسان والتعبير .

يستوثق له ، ويوصيهم أن يعلنوا الخير والوفاء ويجهروا به ، وأن يسروا ما يرونه من الشر ونقض العهد والخيانة حتى لا يؤثروا في الروح المعنوية للمسلمين ، ثم أقبل السعدان ومن معهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا عليه ثم قالوا : عضل والقارة[1] أي كغدرهم بأصحاب الرجيع : خبيب وأصحابه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين [2] .

ذلك ما كان من بني قريظة : استجابوا لأخيهم اليهودي حيي بن أخطب وتآمروا مع أحزاب الكفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه ، وبرئوا منه ، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفحشوا القول لأصحابه ولم يقبلوا تحذير سعد ولا نصيحته في الوقت الذي كان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون محاصرين في المدينة حتى كاد يصالح المشركين على ثلث ثمار المدينة ليفض الحصار حتى قضى الله عز وجل في الأمر : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا[3].

بل أن بني قريظة في أثناء هذا الحصار المر أرسلوا عيونهم يتجسسون على عورات المسلمين ويتعرفون على مواطن الضعف تروي ذلك صفية بنت عبد المطلب عمة النبي صلى الله عليه وسلم فحين كانت هي وأمثالها من النساء والصبايا في حصن لحسان بن ثابت إذ جاءهم رجل يهودي تقول صفية : « فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن ، وقد حاربت قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلمت ابنة عبد المطلب من أنه يطيف بمساكن الذراري والنساء ، ومن أن قريظة قطعت ما بينها وبين

---

(١) عضل والقارة قبيلتان من بني الهون بن خزيمة تآمروا على استدراج أصحاب النبي ﷺ يوم الرجيع وتظاهروا بالإسلام حتى أرسلهم معهم ثم قتلوهم . . . الاصطفا حـ ٢ ص ١٩٦ .

(٢) البداية والنهاية جـ ٤ ص ١١٦ / ١١٧ .

(٣) الأحزاب / ٢٥ .

النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا الرجل عين على المسلمين ويريد عورات النبي صلى الله عليه وسلم ، قالت السيدة صفية لحسان : ليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون في نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آت ، وأن هذا اليهودي يطيف بالحصن ، وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فأنزل إليه فأقتله ، قال حسان : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، والله عرفت ما أنا بصاحب هذا ، ولما لم أر عنده شيئا احتجزت (أي شدت وسطها ثم أخذت عمودا ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته »[1] .

ولكنه من جهة أخرى كان نعيم بن مسعود رضي الله عنه قد خذل بين المشركين وبني قريظة وأوقع فتنة بينهم بتوجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل بنو قريظة وغطفان : إنا والله ما نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا فأبوا عليهم وخذل الله بينهم ، وبعث الله الريح في ليلة شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم .

قال محمد بن إسحاق : ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق راجعا إلى المدينة ومعه المسلمون ، ووضعوا السلاح . . .

الغـزوة :

فلما كانت الظهر أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم معتجراً[2] بعمامة من استبرق على بغلة عليها رحالة عليها قطيفة من ديباج فقال : أو قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال نعم ، فقال جبريل : ما وضعت الملائكة

(١) خاتم النبيين ص ٩٣٦ .

(٢) الاعتجار : لف العمامة من غير وضع شيء منها تحت اللحية .

السلاح بعد ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم ، إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة ، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنا في الناس : من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة .

قال ابن هشام : واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

قال ابن إسحاق : ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على بئر من آبار بني قريظة من ناحية أموالهم يقال لها بئر أنى ، فحاصرهم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب ، وقد كان حيي بن أخطب دخل معهم حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه ، فلما أيقنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم ، قال كعب بن أسد : يا معشر يهود : قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا بما شئتم منها ، قالوا وما هي ، قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل ، وإنه للذي تجدونه في كتابكم فتأمنون به على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم ، قالوا لا نفارق حكم التوراة أبدا ولا نستبدل به غيره ، قال : فإذا أبيتم على هذا فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه ، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء ، قالوا : أنقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير العيش بعدهم ؟ قال : فإن أبيتم عليّ هذه فالليلة ليلة السبت ، وانه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة قالوا : أنفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا -إلا من قد علمت- فأصابه

ما لم يخف عنك من المسخ[1] ؟ فقال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازما .

قال ابن إسحاق : فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتواثب الأوس فقالوا : يا رسول الله : إنهم كانوا موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت -يعنون عفوه عن بني قينقاع حين سأله فيهم عبد الله بن أبي- فلما كلمته الأوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى قال : فذلك إلى سعد بن معاذ ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جعل سعدا في خيمة لامرأة من أسلم يقال لها رفيدة في مسجده ، وكانت تداوي الجرحى ، فلما حكمه في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من أدم وكان رجلا جسيما جميلا ، ثم أقبلوا معه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون : أحسن في مواليك يا أبا عمر فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك فيهم فلما أكثروا عليه قال : قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم ، فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل ، فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد عن كلمته التي سمع منه ، فلما انتهى سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قوموا إلى سيدكم » فأما المهاجرون من قريش فيقولون : إنما أراد الأنصار ، وأما الأنصار فيقولون : قد عم رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين ، فقاموا إليه فقالوا : يا أبا عمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم فقال سعد : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت ؟ قالوا : نعم ، قال : وعلى من ههنا -في الناحية التي فيها رسول الله صلى الله

(١) يشيرون بهذا إلى قوله تعالى « وأسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون . . الأعراف ١٦٣ . وانظر في تفسيرها وسبب نزولها ابن عطية حـ ٦ ص ١٢٢ .

عليه وسلم وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالا له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، قال سعد : فإني أحكم فيهم : أن يقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة (سماوات) قال ابن إسحاق : ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، النساء والذرية في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار وأمر بالأساري الرجال أن يكونوا في دار أسامة بن زيد ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق فخرج بهم إليه إرسالا وفيهم عدو الله حيي بن أخطب ، وكعب بن أسد رأس القوم ، وهم ستمائة أو سبعمائة ، والمكثر لهم يقول : كانوا ما بين الثمانمائة والتسعمائة (1)

وهكذا يتبين لنا من سرد تلك الوقائع أن يهود بني قريظة لم يكونوا سوى مجرمي حرب وفق قوانين القتال المعاصرة ، نقضوا العهد وانضموا إلى الأعداء والحرب قائمة بين المسلمين والأحزاب ، فكان نقضهم هذا خيانة عظمى ، ولم يكن عقابهم العادل المكافيء سوى القتل .

يعلق الشيخ أبو زهرة على هذا الحكم فيقول : « لا شك أن الحكم شديد ولكنه عادل ، والنظر لا من ناحية أنه عادل ، ولكن أما كان موضع للتخفيف ؟ ونقول في ذلك : إنهم مقاتلون واستمرت لهم صفة المقاتلين ، إلى آخر لحظة وعلى بن أبي طالب عندما تقدم لهم خاطبهم على أنهم مقاتلون وقال وهو يهاجمهم : لأذوقن ما ذاق حمزة ولأفتحن حصنهم ، فلما رأوا العزيمة في علي

---

(1) أنظر في ذلك : عون الباري بشرح صحيح البخاري جـ٦ ص ٢٥٥، ٢٥٦ والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٤-١٤٢ ، وتهذيب سيرة ابن هشام ص ٢١١-٢٢٨ ونور اليقين ص ١٦٦-١٦٩ ، وفقه السيرة ص ٣٢٣-٣٤٣ ، ودراسة في السيرة ص ٣٤٢-٣٤٩ .

ومعه الزبير وأنهم مغلوبون لا محالة وطلبوا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فهم ارتضوا ما ينفذ فيهم قبل أن ينزل الحكم فيهم ، فهم الذين نفذوا الحكم فيهم إذا ارتضوا المحكم فيهم ، ومن المقررات القانونية أن من ارتضى محكمين ليحكموا فيه وقد فوض لهم ، ولهم بهذا التفويض أن يحكموا بما يرونه عدلا ، ولقد حكم ، وهو الذي ذهب إليهم [1]. ليحول بينهم وبين نقض الميثاق فردوه ردا منكرا ، وعرف أنهم يريدون اقتلاع الإسلام وقتل أهله [2]

النتائج :

وبفتح حصون بني قريظة يكون المسلمون قد تخلصوا من آخر كتلة يهودية في المدينة اختارت بنفسها -كسابقتها- أن تقف من الإسلام موقف الحقد والعداء وأن تنقض ميثاقها مع الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم ليستخدم اسلوب العقاب الجماعي إزاء اليهود الذين لم يروا منه كما قال سيدهم كعب بن أسد إلا وفاء وصدقا فكان لا يعاقب إلا القبائل التي نقضت عهدها معه تاركا القبائل الأخرى تمارس حريتها الدينية والمدنية كاملة ما دامت على عهدها ، وهكذا لم تؤد حادثة سوق الصاغة إلا إلى إجلاء مسببها من بني قينقاع ، كما لم تؤد محاولة اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم إلا إلى طرد القائمين بها من بني النضير ولو ظلت بنو قريظة على عهدها ولم تمارس خيانتها الخطيرة في معركة الخندق لكان لها شأن آخر غير المصير الذي انتهت إليه ، هذا فضلا عن أن العقاب الذي كان ينزله رسول الله صلى الله عليه وسلم بخصومه اليهود كان دوما مكافئا للجرم الذي ارتكبه هؤلاء الخصوم ، فإذا سمح لكل من بني قينقاع وبني النضير بالجلاء إلى أي مكان يشاءون داخل الجزيرة أو خارجها بعد أن حقن دماءهم ولم يستخدم

(١) أثناء حصار الأحزاب للمدينة .

(٢) خاتم النبيين ص ٩٤٩ .

أسلوب القتل إلا إزاء أولئك الذين خانوا العهد في ساحة الحرب ، وتعاونوا مع الأعداد في ساعة الشدة وهو العقاب الذي تمارسه جميع الدول والقوانين ضد الخائنين .

يقول مونتجمري وات : كانت قد بقيت في المدينة قبيلة عظيمة هي فبيلة بني قريظة وكانت تتظاهر بالإخلاص عندما حاصر المشركون المدينة ولكن مما لا شك فيه أنها كانت قد تمالأت مع المشركين وكانت تنتهز أول فرصة للهجوم على المسلمين من الخلف[1] .

قال الندوي : وقد وافق ذلك الحكم قانون الحرب في شريعة بني إسرائيل ، فقد جاء في سفر التثنية الإصحاح العشرون ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ : « وحين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفع الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك » وهذه كانت العادة المتبعة في بني إسرائيل في عهد أنبيائهم كما جاء في التوراة »[2].

ويقول بودلي في كتابه « حياة محمد الرسول » : « لو ترك محمد جريمة غدر بني قريظة من غير أن يعاقبهم عليها لم يكن للإسلام في جزيرة العرب بقاء ، إنه لا شك أن عملية قتل اليهود كانت عنيفة ولكن لم يكن ذلك حادثا فريدا من نوعه في تاريخ الديانات ، وقد كان لهذا العمل مبرر من وجهة نظر المسلمين ، وقد تحتم الآن على القبائل العربية واليهود أن يتأملوا مرة بعد مرة قبل أن يقدموا على غدر أو نقض عهد لأنهم قد عرفوا عواقبه الوخيمة وشاهدوا

(١) هامش السيرة النبوية للندوي ص ٢٩٣ .

(٢) السيرةالنبوية - الندوي ص٢٩٧ .

أن محمداً يستطيع أن ينفذ ما يريده »[1] .

أما اليهود الذين لا ينتمون إلى تلك الكتل ذات الوجود السياسي والعسكري والإقتصادي فقد ظلوا حتى النهاية يمارسون حقوقهم وحرياتهم في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وخير شاهد على ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي ودرعه مرهونة عند يهودي [2] .

٥ ـ في خيبر :

راح الرسول صلى الله عليه وسلم ينتظر الفرصة المواتية لضرب التجمع السياسي الأخير في خيبر والمواقع المجاورة بسبب ما كانت تمارس ضد الإسلام ، فمنها انطلق زعماء اليهود لدعوة القبائل العربية وتخريبها ضد المسلمين ومنها خرج حيي بن أخطب ودفع بني قريظة إلى الإنتفاض في اللحظات العصيبة ، وقد غدت خيبر بمرور الأيام ملجأ يأوي إليه اليهود المبعدون عن المدينة ينتظرون الفرصة للانتقام من الإسلام واسترداد مواقعهم ومصالحهم التي جردهم الرسول صلى الله عليه وسلم منها وقد اتضح هذا في الأيام القلائل التي اعقبت هزيمة بني قريظة فاتصل اليهود بزعيمهم سلام بن مشكم وسألوه الرأي . . . فأجابهم نسير إلى محمد بما معنا من يهود خيبر فلهم عدد ونستجلب يهود تيماء وفدك ووادي القرى ولا نستعين بأحد من العرب فقد رأيتم في غزوة الخندق ما صنعت بكم العرب ثم نسير إليه في عقر داره فقالت اليهود هذا الرأي فإذا أضفنا إلى ذلك أنهم كانوا يسعون إلى التحالف مع بني سعد ومع غطفان ضد الإسلام ورسوله علمنا أنهم كانوا موطن خطر يهدد المسلمين من جهة الشمال .

---

(١) السيرة النبوية – الندوي ص ٢٩٩ .

(٢) دراسة في السيرة ص ٣٤٩ .

ولهذه الأسباب [١] أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهيأ لقتالهم ، ومهد لذلك بإرسال مجموعات من فدائيي الأنصار لقتل زعمائهم ، ومما أعانه على ذلك أنه عقد صلح الحديبية مع قريش فأمن بذلك خطرهم وجانبهم ، وكان الله عز وجل قد بشر بها في سورة الفتح بعد صلح الحديبية وقد سار رسول الله صلى الله عليه وسلم صوب خيبر على رأس حملة استنفر لها الراغبين في الجهاد فحسب دون الغنائم .

قال ابن إسحاق : وحدثني من لا أتهم عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا قوما لم يغر عليهم حتى يصبح فإن سمع آذانا أمسك وإن لم يسمع آذانا أغار فنزلنا خيبر ليلا فبات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصبح لم يسمع آذانا فركب وركبنا معه ، وركبت خلف أبي طلحة ، وان قدمي لتمس قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم واستقبلنا عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم [٢] ومكاتلهم [٣] ، فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيش قالوا : محمد والخميس [٤] معه فأدبروا هربا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر خربت خيبر إنا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين [٥] ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مرض فأعطى الراية أبا بكر فلم يستطع فتحها فأعطاها عمر فلم يستطع فأعطاها عليا ففتحها الله على يديه . وروى البخاري عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر « لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله قال : فبات الناس يدوكون [٦] ليلتهم

(١) أنظر في هذه الأسباب : سيرة الرسول –محمد عزة دروزه جـ٢ ص ٢٠٤ .

(٢) المساحي جمع مسحاة وهي الفأس .

(٣) المكاتل جمع مكتل وهي القفة الكبيرة .

(٤) الخميس : الجيش سمي بذلك لأنه كان يتكون من خمس فرق .

(٥) البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص ٢٠٧ .

(٦) يدوكون ليلتهم : باتوا في اختلاط ودوران وقيل : يذكرون .

أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يرجوا أن يعطاها فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقالوا : هو يا رسول الله يشتكي من عينه قال : فأرسل إليه فأتى فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية ، فقال علي : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم أدعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله نعالى فيه فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم[1] ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم ما خرج لقتالهم ولا حرص على ذلك ولا أوصى أصحابه بهذا وإنما كانت غايته الأمن من خطرهم والوقاية من شرهم ودعوتهم للإسلام فإن هم اهتدوا وأسلموا فذلك الخير كل الخير وإلا فليأمن جانبهم ويحذر شرهم . ومما يؤكد ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن انتصر عليهم وأصبحت جميع أموالهم تحت يديه صالحهم على النصف في ثمار خيبر على أنه إذا شاء أن يخرجهم منها أخرجهم .

قال ابن إسحاق : وحاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر في حصنيهم الوطيح والسلالم[2] حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم ففعل وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حاز الأموال كلها الشق ونطاه والكتيبة وجميع حصونهم إلا من ذينك الحصنين فلما سمع أهل

---

(١) السابق ص ٢٠٨ .

(٢) كانت خيبر تشتمل على سبعة حصون هي : ناعم ، القموص ، الشق ، النطاة ، السلالم ، الوطيح ، الكتيبة ، وكان الوطيح والسلالم آخر حصون خيبر فتحا لأنها كانت منيعة وطال حصارها أربعة عشر يوما ، أنظر : غزوة خيبر في عون الباري شرح صحيح البخاري جـ٦ ص ٢٧٥ وما بعدها .

فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسيرهم ويحقن دماءهم ويخلوا له الأموال ففعل ، وكان ممن مشى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم ، في ذلك محيصة بن مسعود أخو بني حارثة ، فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاملهم في الأموال على النصف وقالوا له نحن أعلم بها منكم وأعمر لها ، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصف ، على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم ، وعامل أهل فدك بمثل ذلك(١) . ولا يتورع اليهود عن نقض العهد والخيانة حتى وهم في أشد الحاجة إلى الوفاء فهاهم يعاهدون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محاصرهم ومتمكن منهم على أن يفك أسرهم وله جميع أموالهم ثم ينقضون ذلك ويخونون ، قال الواقدي : ثم تحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل الأجية والوطيح والسلالم بحصني أبي الحقيق وتحصنوا أشد التحصين ، وجاء إليهم كل من كان انهزم من نطاة إلى الشق فتحصنوا معهم في القموص وفي الكتيبة وكان حصنا منيعا وفي الوطيح والسلالم وجعلوا لا يطلعون من حصونهم حتى هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينصب المنجنيق عليهم فلما أيقنوا بالهلكة وقد حصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة عشر يوما ، نزل إليه ابن أبي الحقيق فصالحه على حقن دمائهم ويسيرهم ويخلون بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين ما كان لهم في الأرض والأموال والصفراء والبيضاء والكراع والحلقة وعلى البز إلا ما كان على ظهر إنسان يعني لباسهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتم شيئا فصالحوه على ذلك قلت ولهذا لما كتموا وكذبوا وأخفوا ذلك المسلك الذي كان فيه أموال جزيلة تبين أنه لا عهد لهم فقتل ابن أبي الحقيق وطائفة من أهله بسبب نقض العهود

---

(١) البداية والنهاية جـ٤ ص ٢٢٢ .

والمواثيق [1] . ومن ذلك أيضا محاولتهم اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم بعد الصلح والمعاهدة كما روى البخاري عن أبي هريرة قال « لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم » وكانت التي اهدتها وقدمتها امرأة سلام بن مشكم الذي قتل .

وروى الإمـام أحمد بعد ذلك : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اجمعـوا لي من كان ههنـا من يهود ، فجمعوا له فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه ؟ قالوا نعم يا أبا القاسم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أبوكم ؟ قالوا أبونا فلان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتم بل أبوكم فلان قالوا صدقت وبررت فقال : هل أنتم صادقي عن شيء إذا سألتكم عنه قالوا نعم يا أبا القاسم وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أهل النار؟ فقالوا نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لا نخلفكم فيها أبدا ثم قال لهم : هل أنتم صادقي عن شيء إذا سألتكم ؟ فقالوا نعم يا أبا القاسم ، قال هل جعلتم في هذه الشاة سمـا ؟ قالوا نعم ، قال ما حملكم على ذلك ؟ قالوا أردنا إن كنت كاذبا أن نستريح منك ، وإن كنت نبيا لم يضرك [2] .

فانظر ماذا يفعلون ، يدعون أنهم يبحثون عن صدق النبي صلى الله عليه وسلم ونبوته ولا يبحثون عن اتباعه والإهتداء بهديه وقد تبين صدقه ونبوته .

٦ - مع اليهود المتفرقين :

وكان بجوار خيبر عدة قبائل من اليهود القلائل يعيشون في عدد من القرى

(١) البداية والنهاية جـ٤ ص ٢٢٣ .
(٢) البداية والنهاية جـ٤ ص ٢٣٣ .

والبلاد فلما علموا بسقوط خيبر سارع بعضهم بإبداء الرغبة في مصالحة الرسول صلى الله عليه وسلم على مثل ما صالح عليه يهود خيبر ، فصالحهم ومن هؤلاء يهود فدك وتيماء الذين صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجزية وأقاموا في بلدهم [١] . أما يهود وادي القرى فلم يقبلوا الصلح إلا بعد الحرب والقتال والهزيمة وبذلك فتحت وادي القرى عنوة لا صلحا[٢] .

النتـائج :

وبسقوط خيبر والمواقع المجاورة تم تصفية آخر تجمع يهودي لعب دوره في مواجهـة الإسـلام وخصومة أهله وقضي قضاء تاما على القوى السياسية والإقتصادية ليهود الحجاز وغدت كلمة الإسلام هي العليا في معظم مساحات الجـزيرة العربية إلى أن تم فتح مكة فأصبحت كلمة الإسلام هي العليا في جميع ربوع الجزيرة .

أما باقي اليهود في أطراف الجزيرة العربية من أقصى الشمال فقد كتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤمنهم على أراضيهم وأموالهم ودياناتهم وأن الأمراء منهم ، ولا معاداة بينهم ، وأن لهم ذمة الله ورسوله ، وذلك في مقابل جزية يدفعونها كل عام فمن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى بني جنبة الذين كانوا يقيمون على خليج العقبة قريبا من أيله « أما بعد فقد نزل على رسلكم راجعين إلى قريتكم فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون لكم ذمة الله وذمة رسوله ، وإن رسول الله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم لا ظلم عليكم ولا عدى وإن رسول الله جاركم مما منع منه نفسه ، وان عليكم ربع ما أخرجت نخلكم وربع ما صادت عروككم[٣] وربع ما اغتزل نساؤكم وإنكم برئتم بعد

(١) خاتم النبيين ص ١٠٥٥ .
(٢) السابق ص ١٠٧١ .
(٣) عروككم : مراكبكم .

من كل جزية أو سخـــرة فإن سمعتم وأطعتم فإن على رســول الله أن يكـرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم وأن ليس عليكم أمراء إلا من أنفسكم أو من أهل رسول الله [1] .

وكتب مثل ذلك -في الأمان والذمة- لبني غاديا وبني عريص وأهل جرباء وأذرح ويهود البحرين .

فمن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم ليحنة بن رؤبة ملك أيله : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله تعالى وذمة محمد النبي ومن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يريدونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر »

ومن ذلك كتابه لأهل جرباء وأذرح وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب محمد رسول الله لأهل جرباء وأذرح أنهم آمنون بأمان الله تعالى وأمان محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب ومائة أوقية وأن الله تعالى عليهم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين ومن لجأ إليهم من المسلمين » [2] .

وبذلك تمكن الرسول صلى الله عليه وسلم من تحويل هذه التجمعات اليهودية في أقصى الشمال إلى جماعات من المواطنين في الدولة الإسلامية يدفعـون لهـا ما تفـرضـه عليهم من ضرائب نقدية أو عينية ويحتمون بقوتها وسلطانها ويتمتعون بعدلها وسماحتها . وبهذا استقر الإسلام وسكت اليهود

(١) دراسة في السيرة ص ٣٥٨ .
(٢) خاتم النبيين ص ١٣٠٦/١٣٠٧ .

إلى حين كما هي عادتهم وطبعهم فما أن توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدأوا يسعون إلى الإنقضاض على الإسلام والمسلمين يريدون استرداد مجدهم وسيادتهم ، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها : لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب واشرأبت اليهود والنصرانية ونجم النفاق ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم حتى جمعهم الله على أبي بكر[١] .

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٤٠٤ .

خاتمـــة

مما سبق يتضح أن العلاقات الإسلامية مرت بعدة أطوار ؛ كان لكل طور منها ميزاته ، ففي مرحلة ما قبل الهجرة والبعثة كان اليهود يستفتحون بالنبي صلى الله عليه وسلم على الذين كفروا ويتباهون به ظنا منهم أن يكون من بينهم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وكانوا يخيفون به أهل المدينة ويقولون لهم نقتلكم معـه قتـل عاد وإرم ، فلمـا بعث حاولـوا القضـاء عليه وتـأليب المشركين عليه ، وفي بدء الهجرة حاول النبي صلى الله عليه وسلم اكتسابهم وأمن جانبهم فعـاهـدهم على السـلام والإمان وحماية المدينة ولكنهم كانوا ينقضون العهد والميثاق ، فبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يطهر المدينة من كل فئة منهم تبدأ العداوة وتعلنها فبدأ ببني قينقاع ثم بني النضير ثم بني قريظة ، لم يؤاخذ فئة بجريرة أخرى ولا قبيلة بنقض قبيلة أخرى ولكنه كان ينتظر ويجرب في كل مرة حتى يتأكد من نقضهم العهد فلا يجد بدا من حربهم وبعـد أن حارب رؤسـاءهم وزعمـاءهم كاتب الضعفاء منهم وعاهدهم على الأمان والسلام وطرح العداء وإقامة الحب والتعاون مقامه .

وها نحن اليوم نكرر معهم المحاولة وندعوهم إلى السلام فهل يقبلون ؟ نسأل الله لنا ولهم الهداية والتوفيق .